أندِريه جيُد

السَّمْفُونية الرَّيفيَّة

ترجمة

حسَن صَادِق

تقديم وتحرير

صبحي عبد الرحمن

الكتاب: السَّمْفُونية الرَّيفيَّة

الكاتب: أندِريه جيُد

ترجمة: حسَن صَادِق

تقديم ومراجعة: مهدي عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

جيُد، أندِريه

السَّمْفُونية الرَّيفيَّة / أندِريه جيُد، ترجمة: حسَن صَادِق، تقديم ومراجعة: مهدي عبد الرحمن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

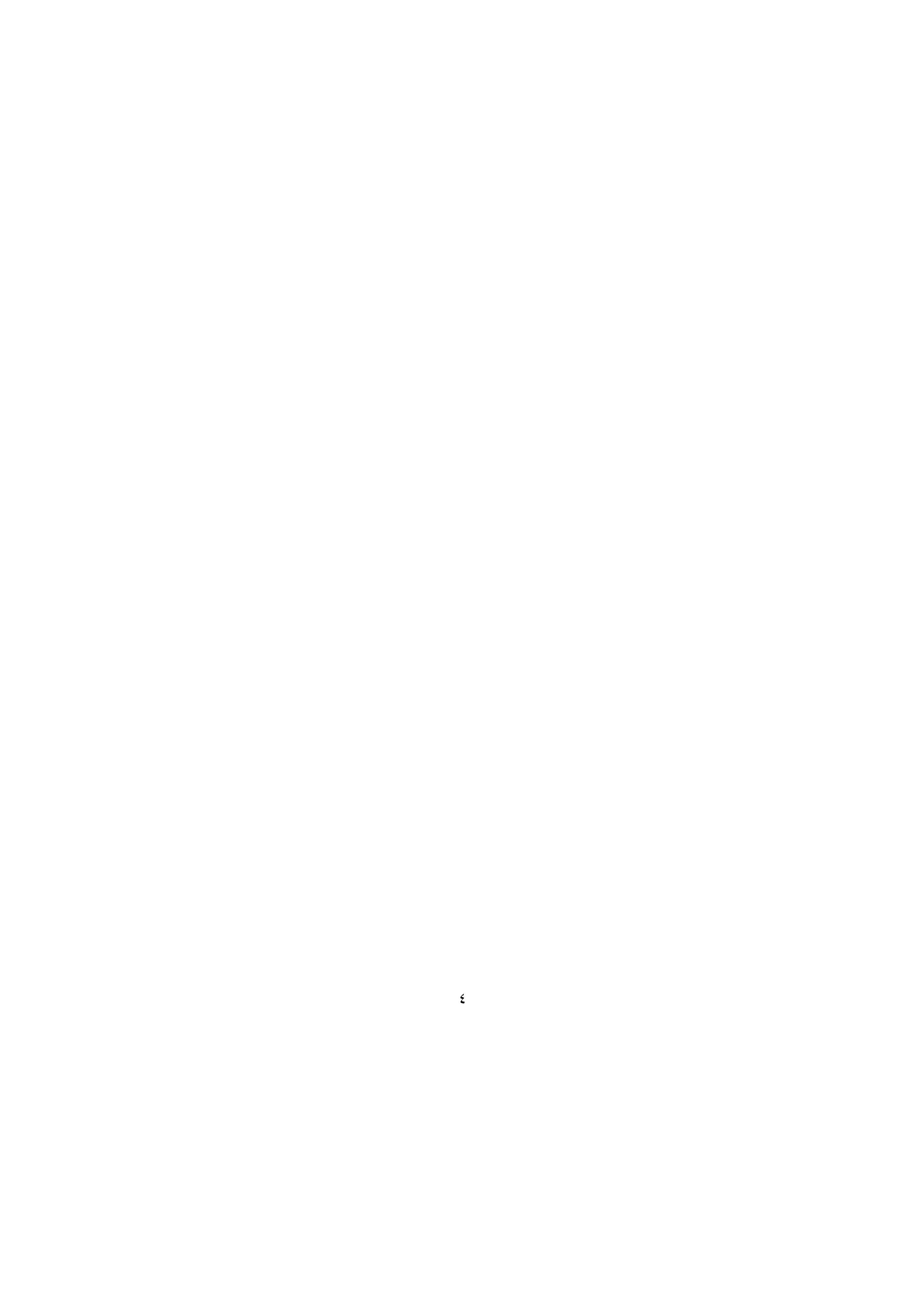
١١٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٢١٨ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٩٢٨٣ / ٢٠٢١

السَّمْفُونية الرَّيفيَّة





تقديم

تعد رواية "السيمفونية الريفية" للكاتب الفرنسي الفائز بجائزة نوبل في الآداب "أندريه جيد"، هي ثاني أعماله من حيث الصدور ومن أبقى هذه الأعمال أثرا وأكثرها انتشارا، لذلك تعددت ترجماتها إلى لغات العالم، ومنها لغتنا العربية، وكانت أول ترجمة لها هي تلك التي نقدمها، وصدرت في القاهرة عام ١٩٣٨، وتلتها ترجمات أخرى بعناوين مختلفة، منها "السيمفونية الرعوية" أو "سيمفونية الرعاة".

وفي الرواية يسجل أندريه جيد يوميات رجل دين ريفي يعيش مع عائلته في جو متزمت، ويقرر هذا الرجل رغم رفض زوجته إيواء فتاة يتيمة ضريرة ماتت معيلتها، ويقوم الرجل على تربيتها؛ فتبدي الفتاة له ملامح الذكاء والفطنة والخيال الواسع الممزوج بالحساسية المفرطة؛ فتنشأ بينهما علاقة متميزة تدفعهما لطرح أسئلة وجودية حول ذاتهما وحول العالم المحيط، فيتطور شعور العطف والحنان الأبوي إلى شعور الحب الذي يصطدم بالواقع، وتدرك الفتاة حب الابن جاك لها، ثم تتابع الأحداث سيرها لتنتهي بانتحار الفتاة بعد استعادتها بصرها، وما تلاه من اختلاط أحاسيسها بين مشاعر الحب للأب أولًا ثم للابن.

سيرة الكاتب

وُلد الكاتب الفرنسي الشهير أندريه جيد (واسمه كاملا: أندريه بول جيوم جيد) في يوم ٢٢ نوفمبر ١٨٦٩، في منزل الأسرة بمدينة باريس لعائلة بروتستانتية ثرية. من أسرة برجوازية باريسية، من الأقليات البروتستانتية، تتمتع بالثراء، والنفوذ، والده بول، أستاذ القانون بكلية باريس، وأمه جولييت رونورد، وكانت تنتمي إلى الطائفة الكالفينية المتشددة دينيا، وكان عمه شارل جيد أستاذا للاقتصاد في الجامعة. تربى بين الوزراء، ورجال الدين، دخل المدرسة الألزاسية عام ١٨٧٧.

وقد توفي والده وهو في سن الحادية عشرة، وهو الأمر أثَّرَ عليه سلباً طيلة فترة حياته، كما كان سبباً في تَلَقِّيه تربية قاسية ومتشددة. إذ كانت والدته سيدة متسلطة، دفعها رحيل الأب إلى التحكم في حياة ابنها ومصيره.

وقد أكسبته نشأته في أسرة غنية ومحافظة صفتين: أولاهما لم يكن بحاجة لتحصيل الرزق، مما أتاح له التفرغ لتنمية موهبته الأدبية، والثانية ثورته على القيم الأخلاقية الصارمة، فانجرف نحو المثلية، وقد كان صادقا فصرح بشذوذه في أدب.

أُصيب جيد بأمراض مختلفة في طفولته، جعلت صحته مضطربة، فكانَ يشعر منذ صغره أنه مختلف عن الآخرين. فقد كان يرى الأطفال يلعبون ويضحكون بكل صحة وحيوية، أمَّا هو فكان يصارع الأمراض التي احتلت جسده الضعيف.

ولم تكن دراسته منتظمة في المدرسة، فعاشَ طفولةً قاسية، وهو لم يكن بحاجة إلى شهادة دراسية ولا مهنة، لأن والده ترك له ثروةً كبيرة تَسمح له بالعَيش الرغيد، لذلك لم يبحث عن عمل، ولم يمارس أية مهنة، وتفرَّغَ بشكل كامل للقراءة والكتابة، وفي سن الرابعة عشرة، أحبَّ "مادلين" وكانت ابنة عمِّه ومن وحي قصة حُبِّه، استوحى عمله الأدبي الأول "دفاتر أندريه فالتير" عام١٨٩١، وبطل هذه القصة يحب ابنة عمِّه، ويتكلم عن شعوره بالحزن والاكتئاب، وطموحاته المستقبلية. وعندما يتخلى عنها يُصاب بالجنون، وتنتهي حياته بالموت. وهذه القصة بمثابة سيرة ذاتية، يتحدث فيها جيد عن نَفْسِه بلسان بطل القصة. لكنَّ الاختلاف بين الواقع والخيال هو أن أندريه جيد قد تزوج ابنه عمِّه عام ١٨٩٥، ولَم يَتركها، ولم يُصَبْ بالجنون، كما حدث مع بطل قصته.

وأثناء رحلة إلى الجزائر تعرَّف على الكاتب أوسكار وايلد، واقتنعَ نهائياً بضرورة أن يعيش على هواه، وحسب طبيعته، لذلك رسم حياته باعتباره مثلياً. ومن الواضح أنَّه كان يُفرِّق بين اللذة والحب. فقد أحبَّ ابنة عمِّه وتزوَّجها، ومَعَ هذا سعى إلى الحصول على اللذة الجسدية عن طريق العلاقات المثلية.

والمشكلة الحقيقية في حياة جيد وكتاباته هي التناقض الصارخ. فهو يميل إلى المثالية والطهارة بِحُكم تربيته البروتستانتية المتشددة، ومن جهة أخرى، يميل إلى الملذات الجسدية الممنوعة والمرفوضة دينياً

واجتماعياً، لذلك تأرجحت كتاباته بين تناقضات تربيته الصارمة ومشاعره الحسية. والتناقضُ المسيطر على حياته انتقلَ إلى كتاباته. فمثلاً، في اللا أخلاقي نلاحظ تركيزه على متعة الجسد، في حين أن قصته "الباب الضيق"، تُركِّز على أهمية إخماد الرغبة الجسدية. ويظهر التناقض أيضاً في حياته الشخصية، حيث اعتنق الشيوعية لفترة وهو البرجوازي الثري، ثم تخلى عنها إلى الأبد، بعد أن اقتنع بوحشية النظام الستاليني.

الرحالة

فقد أندريه جيد والدته عام ١٨٩٥ فعوَّض هذا الحب، بالزواج من قريبته مادلين، وسافر الاثنان إلى شمال إفريقيا، وسويسرا، وإيطاليا، لقضاء شهر العسل، وهي الفترة التي تدور فيها أحداث رواية "اللا أخلاقي". وقد عشق إفريقيا، التي قال فيها: "إنني في إفريقيا أسمع وأرى وأتنفس، كما لا أفعل في أي مكان. وحينما تتسلل عطورها، وألوانها وعبقها، في داخلي فإنني أحس بقلبي يفرح، وينتحب من العرفان بالجميل".

أما الذي ترك الأثر الكبير في حياته وأدبه، هو الجزائر، منذ زارها لأوّل مرة إثر معاناته من حالة صحيّة، ونفسيّة مُتَدهوِرَة، فكانت واحة بسكرة المكان المناسب لاستعادة الأمل. فبحسب يومياته كانت أوّل زيارة عام ١٨٩٣، وآخرها عام ١٩٤٥، فبقي يتردّد على الجزائر لأزيد من نصف قرن، يدوّن عنها أروع الصفحات ويرسم لها أبدع الصور،

يمزج الخيال بالواقع، فقد جسّد بجدارة واقع الجزائريين في عهد الاستعمار المظلم، وأبدع في تصوير روعة هذه الأرض الطيبة والمعطاءة، المتمسكة بجذورها، وأصالتها.

وفي عام ١٨٩٣ سافر إلى شمال أفريقيا، وأمضى عاما هناك وخاض في الكثير من تجارب الحياة إلى حد التطرف. وحينما أصابه المرض خلال رحلته ونجا من الموت بأعجوبة، كتب من وحي هذه التجربة العديد من الروايات التي تعنى بالحياة النفسية للإنسان منها «اللاأخلاقي»، و«الباب الضيق» التي نشرت عام ١٩٠٩وفي العام ذاته ساهم في تأسيس مجلة «عروض الروايات الفرنسية الجديدة»، كما أصدر مجلة أخرى عام ١٩١٩ كتب فيها تأملاته عن الحياة، وفي ذات العام أيضاً نشر روايته «سيمفونية الريفي» وكتبها بصيغة يوميات.

وفي روايته «المزيفون» التي نشرها عام ١٩٢٦ عرى جيد الهراطقة الذين يخدعون ذاتهم كمحاولة لتفادي مفهوم الولاء الإنساني. في العشرينات بات جيد بطل ضحايا المجتمع لدفاعه عن إنسانتيهم وحقوقهم حتى المجرمين منهم. وقد عايش الظلم الاجتماعي أكثر من العديد من الكتاب، ابتداء من عام ١٨٩٦ عبر المناصب التي تقلدها كمحافظ ثم قاضي وبعدها مندوب سامي لمستعمرة فرنسية.

وقد عاش جيد منذ عام ١٩٤٢ وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية في شمال أفريقيا،وابتداء من عام ١٩٤٠ بدأ يحصد نتاج إبداعه وينال

ما يستحقه من تقدير من قبل العديد من الهيئات والمؤسسات، كما بدأ منذ عام ١٩٤٨ بنشر مراسلاته مع العديد من الأدباء مثل الروائي بروست والشاعر رينر ماريا ريلكه بصورة منتظمة، وفارق الحياة في ١٩ فبراير عام ١٩٥١.

مهدي عبد الرحمن

الكراسة الأولى

١٠ فبراير ١٨٩٠

تراكمت الثلوج التي لم تتوقف عن السقوط منذ ثلاثة أيام في الطرق وأعاقت السير فيها، فلم أستطع الذهاب إلى (ر) التي اعتدت أن أقيم فيها شعائر المذهب البروتستانتي مرتين في كل شهر مدى خمسة عشر عامًا بغير انقطاع. ولم يجتمع في هذا الصباح من المؤمنين الأتقياء إلا عدد يبلغ الثلاثين في بيعة «لابريفين»، الصغيرة.

سأنتفع بهذا الفراغ الذي أعد للي أسبابه احتباسي الإرغامي الذي يشبه الاحتجاز في الدير، لأعود بالذاكرة إلى غضون الماضي وأروي كيف بلغت بي الحال إلى أن أشغل نفسي «بچرترود» وأجمل جهد عنايتي وقفًا على شأنها.

وقد اعتزمت أن أسجل هنا كل ما يمس التكوين ويتصل خطوات التفتح والنمو لهذه النفس الورعة النقية، التي يخيل إلى أني لم أخرجها من الظلمة إلا لتكون خالصة للحب والسعادة.. اللهم إني أحمدك إذ اخترتني لهذه المهمة!

* * *

منذ عامين وستة أشهر، بينما كنت أصعد من «شودي فون» إذا

بفتاة غضة الإهاب لم أعرفها من قبل تسعى إلى مسرعة لاهثة لتذهب بي إلى شيخة مسكينة تعاني آلام النزع المريرة على بعد سبعة فراسخ من مكاني.

وكان الجواد معدًا لم أفصله من العربة ليستريح، فأركبت الفتاة إلى جواري، بعد أن حصلت على مصباح، إذ توقعت أني لن أستطيع العودة قبل الليل.

كنت أعتقد أني أعرف الناحية كلها جد المعرفة، ولكن الفتاة بعد أن مررنا بمزرعة «لاسودراي» جعلتني أسلك طريقًا لم أكن قد غامرت بنفسي في اجتيازه إلى ذلك الحين. ومع ذلك عرفت، على بعد فرسخين مني في الجهة اليسرى، بحيرة صغيرة كنت أرتاد حفافها في بعض الأحيان وأنا في رونق الصبا وريق الشباب. ولكني لم أرها منذ خمسة عشر عامًا، إذ لم يستدعني إلى تلك الناحية أي واجب ديني، فلم يعد في وسعي أن أقول أين هي، وكنت أثناء هذا الزمن الطويل قد صدفت عن التفكير فيها حتى أنه خيل إلى حين أخذتها ببصري وتبينتها بغتة في سحر المساء الوردي الضارب إلى صفرة الذهب أني لم أرها للمرة الأولى إلا في حلم من الأحلام.

وكان الطريق ممتدًا إلى جانب مجرى الماء، ثم انشعب عنه قاطعًا طرف الغابة، وانبسط من بعد ذلك محاذيًا لعين ماء آسن يعلو أديمها الطحلب الراكد..وليس من شك في أني لم أطأ قط هذا المكان.

غربت الشمس وكنا نسير من وقت طويل في الظلام. وعلى حين بغتة أشارت الفتاة بإصبعها إلى جانب من جوانب ربوة، ولفتت نظري إليه، فرأيت كوخًا من السهل على الناظر إليه لأول وهلة أن يعتقد أنه خرب خال من الناس، لولا خيط دقيق من الدخان يتصاعد منه ضاربًا إلى الزرقة في ظلام الليل ثم إلى الصفرة حين يعلو إلى تبر الأفق.

ولما صرت على قاب خطوات من الكوخ، ربطت الجواد إلى شجرة تفاح مجاورة، ثم لحقت بالفتاة في الغرفة المعتمة التي يتكون منها هذا المسكن البائس، فوجدنا الشيخة قد استوفت أنفاسها منذ قليل.

وفي ذلك الموقف اصطلح على وحشة المكان وجلال السكون ورهبة المنظر، فبعث كل أولئك الرعب في نفسي وأخذ منها كل مأخذ. ورأيت غير بعيد من الفراش امرأة جاثية ما يزال الشباب يألفها ويستطيب صحبتها، ثم أشعلت الفتاة شمعدانًا له دخان، ووقفت عند مؤخر الفراش جامدة لا تنبس ولا تطرف، وكنت حسبتها بادئ الرأي حفيدة الميتة، ولكنها لم تكن إلا خادمتها، وقد حاولت أثناء الطريق كله أن أصل معها حبل الحديث، ولكني لم أظفر منها بما ينقع غلة التشوف.

نهضت المرأة الراكعة، ولم تكن من أهل المتوفاة كما ظننت عند رؤيتها، بل كانت جارة صديقة استدعتها الخادم حين رأت سيدتها تذبل وتضعف وتحتضر، فجاءت وأعلنت جميل إستعدادها للسهر إلى جانب الجثمان الهامد، ثم أنبأتني أن الشيخة لفظت نفسها الأخير في هدوء لا

يشوبه ألم. واتفقنا معًا بعد ذلك على الأمور الخاصة بالدفن وتشييع الجنازة. وكان من الواجب علي، كما وقع لي كثيرًا من قبل في تلك النواحي المنعزلة المفقودة، أن أقرر كل شيء وأقوم بكل أمر.

وإني أعترف بأني كنت محرجًا قليلًا، إذ كيف أترك هذا الكوخ في حراسة الجارة وهذه الفتاة الخادم، مهما يكن مظهره دالًا على الفقر المدقع ناطقًا بالبؤس البالغ؟! ومع ذلك ليس من المقبول عقلًا أن يكون في زاوية منه كنز مستتر. وماذا كنت أستطيع فعله في هذه الحال؟ وبرغم ما جال بذهني من الخواطر، سألت هل تركت العجوز وريثًا؟

ولما فرغت من إلقاء سؤالي، تناولت الجارة الشمعدان وأرسلت ضوؤه إلى ركن من الغرفة، هو مطهي الكوخ، فاستطعت أن أتبين فيه كائنًا غير واضح الأجزاء، جالسًا القرفصاء تدل هيئته على أنه مستغرق في النوم. وكان شعره الكثيف الفينان يكاد يخفي وجهه إخفاء تامًا.

قالت لي الجارة:

– هذه الفتاة الضريرة. إنها ابنة أخيها، إذا صدق قول الفتاة الخادم، وهي آخر سلالة الأسرة فيما يظهر ومن بقي من أفرادها في العاجلة. ينبغي إيداعها أحد الملاجئ، وإلا فلست أدري كيف يكون مصيرها.

آلمني أن أسمع هذه المرأة تبت على هذه الصورة في مصير الفتاة أمامها، وبلبل بالي استشعار الحزن الذي قد تنتجه في داخل نفسها هذه الأقوال الخشنة العارية من التجمل والرفق، فقلت في خفوت وهدوء

لأدعو الجارة بهذه الوسيلة إلى أن تخفض من صوتها:

– لا توقظيها

– آوه! لا أظنها نائمة، ولكنها بلهاء لا تتكلم ولا تفهم شيئًا كما يقال. وهي من وقت قدومي إلى هنا في هذا الصباح لم تتحرك إلى الآن تقريبًا. اعتقدت أول الأمر أنها صماء، ولكن الخادمة تدعي غير ذلك وتقول بأن حالها ترجع إلى أن الشيخة لم توجه إليها الكلام قط، كما أنه لم توجهه إلى أي إنسان آخر، وأن الفتاة لم تعد تفتح فمها منذ زمن بعيد إلا حين تبل أوامها بشربة أو تتبلغ بلقمة.

– وما عمرها؟

– أظنها في الخامسة عشرة من عمرها. وعلى كل حال، فإني لا أعرف من هذا الأمر أكثر مما تعرف أنت..

* * *

لم يطرأ على ذهني في الحال أن أجعل شأن هذه الفتاة المنبوذة من نصيب عنايتي الشخصية، ولكن بعد أن فرغت من الصلاة، أو على الأرجح، أثناء إقامة الصلاة راكعًا بين الجارة والخادم الصغيرة الجاثيتين مثلي على مقربة من الفراش، أدركت وتمثل لنفسي أن الله جلت قدرته قد وضع في طريق ضربًا من الالتزام، وأني لا أستطيع التنحي عن القيام به دون أن أكون نذلًا جبانًا.

ولما نهضت من ركوعي، كنت قد أمضيت عزمي على أن أستصحب معي الفتاة في المساء نفسه، وإن كنت لم أستوضح نفسي بعد عما يكون من أمري معها بعد ذلك ولم أسألها عن الشخص الذي سأستودعه إياها ليعني بحالها.

قضيت بعض لحظات في تأمل وجه العجوز الميتة، وكان فمها ذو التجاعيد والنتوء يبدو مشدودًا كأن طرفيه قد جذبا بخيط كيس بخيل، مدرب على الحرص الشديد فلا يدع شيئًا يفلت منه. ثم التفت إلى الضريرة، ونفضت إلى الجارة جملة ما انطويت، فقالت:

– الأمثل ألا تكون الفتاة هنا غدًا حين يأتي القوم لحمل الجثة إلى قبرها.

وكان هذا نهاية الحديث بيننا.

ما أكثر الأشياء التي كان من السهل تدبيرها، لولا الاعتراضات الوهمية التي يتسلى الناس أحيانًا بابتكارها! وكثيرًا ما حيل بيننا، منذ الطفولة، وبين هذا العمل أو ذاك مما كنا نرغب في أدائه، لا لشيء إلا لأننا نسمع لهذه الجملة تطلق من حولنا في دؤوب وتكرار: إنه لن يستطيع أداءه..

أنهضت الفتاة فاستسلمت واستفادت أنها دابة سليب الإرادة وكانت قسمات وجهها منتظمة متسقة تحظى بقسط وافر من روعة الجمال، ولكنها لم تكن حية فصيحة تمام الإفصاح. ثم تناولت غطاء

وجدته على الحشية التي كانت تتخذها فراشًا لها في ركن من الغرفة تحت سلم داخلي يؤدي إلى مخزن الحب، وساعدتني الجارة في صدق ولطف على أن ألف جسم الفتاة بهذا الغطاء لفًا محكمًا، لأن الليل كان رطبًا على الرغم من صحوه وصفائه.

ولما فرغت من هذا العمل، أشعلت مصباح المركبة، وقفلت راجعًا وإلى جانبي في التصاق شديد هذه الكتلة البشرية الساكنة التي لم ألاحظ عليها الحياة إلا من الحرارة المظلة التي كانت تشعها في جسمي.

وكنت أفكر أثناء الطريق وأقول لنفسي: أنائمة هي؟ وما أشد سواد هذا النوم؟ وفي أي شيء يختلف السهر هنا عن النوم؟ رب إن نفسًا سجينة تسكن هذا الجسد المائل المنحرف، وهي تنتظر من غير شك أن يمسها آخر الأمر شعاع من نور عطفك ورحمتك أتسمح يا مبدع الكون بأن حبي، ربما يبعد عنها الظلام البشع المخيف؟ ..

لا أستطيع الصبر على كتمان الاستقبال السيء الأليم الذي لقيته عند عودتي إلى بيتي، لأني كلف بالحقيقة أكثر مما ينبغي.

زوجي روضة تنبت فيها أغراس الفضائل، ولم أستطع أن أشك لحظة واحدة في معدن قلبها النقي الكريم، حتى في أصعب الأوقات التي مرت بنا أحيانًا وفي أشد الأزمات التي قدر علينا أن نعانيها ونجتازها. ولكن عطفها الطبيعي ينبغي ألا يفاجأ ويتغفل. إنها شخص مولع بالنظام تصر على ألا تسبق الواجب قبل أن يحل، ولا أن تتوانى عن

أدائه في حينه. وبرها نفسه منتظم له عندها قواعد ثابتة، حتى لكأن الحب كنز يفنيه سوء التدبير وبسط الكف كل البسط! وهنا نقطة الخلاف الوحيدة بيننا..

الفكرة الأولى التي نشأت في ذهنها حين رأتني أعود في ذلك المساء مع الفتاة المسكينة، أفلتت من بين شفتيها في هذه الصرخة:

– ما الذي أضفته الليلة أيضًا إلى أعبائك؟

أدركت أننا سنلج باب المناقشة لا محالة كما هي العادة في كل مرة، فبدأت بالأطفال أطلب إليهم الخروج، وكانوا وقوفًا ونفوسهم في قبضة الدهش وأعناقهم مشرئبه على ظمأ إلى الاستطلاع آه! لشد ما كان هذا الاستقبال مختلفًا عما كنت أتمناه!

ابنتي العزيزة «شارلوت» الصغيرة هي وحدها التي شرعت ترقص طربًا وتصفق بيديها ابتهاجا حين فهمت أن شيئًا جديدًا، شيئًا حيًا سيخرج من المركبة. ولكن الآخرين الذين صبتهم أسهم في قالبها منذ الطفولة ثاروا بأختهم وقذفوها بالكلمات الباردة التي تطفئ شعلة الحماسة، وأخذوا عليها الطريق لتنزل قدماها.

مرت بنا لحظات اضطراب وتبلبل وحيرة، وعجزت امرأتي وأولادي عن استخلاص السبب الذي يدفعني إلى إظهار الحرص الشديد حين أخذت بيد الفتاة وقدت خطاها في عطاف الرفق والحذر، لأنهم لم يدركوا إلى تلك اللحظة أنهم يستقبلون في داره فتاة فاقدة البصر.

ولقد تملكتني حيرة العجب وتملكتني رعدة الفزع، فضلًا عنهم، ما أن تركت يدي يدها التي لم أنحها خلال الطريق كله، إذ طفقت تصعد أنات عجيبة لا عهد لنا بمثلها من قبل. وفي الحق لم يكن في صرخاتها شيء إنساني، ويكاد يجزم الذي يسمع لها بأنها عواء كلب صغير يشكو ويتململ.

وكانت في أثناء مشيها تتخلج ركبتاها وتنثني، وتتزايل ساقاها وتلتوي، لانتقالها فجأة وللمرة الأولى من حيز المشاعر المألوفة الضيق التي كان يشمل كل عالمها. ولما دفعت نحوها مقعدًا سقطت على الأرض قانعة مستسلمة كشخص لم يعرف الجلوس طيلة عمره. ولم أر في هذه الحالة بدًا من أن أقودها إلى مكان قريب من الموقد، فاستعادت قليلًا من الهدوء والطمأنينة حين استطاعت أن تجلس القرفصاء، كما رأيتها في بيت الشيخة عند دخولي، على مقربة من الموقد ومستندة إلى حافة المدفأة. وهذه جلستها التي تألفها فيما أعتقد، لأنها في المركبة أيضًا أثناء الطريق، انزلقت ملء رغبتها إلى أسفل المقعد وجمعت نفسها عند قدمي وظلت على هذه الحال حتى بلغنا البيت.

ساعدتني امرأتي على الرغم من شعورها، وهي في غير مواربة كلما صدر عنها نزوع أو توثب بمحض الطبيعة بعيد كل البعد عن التكلف، كان هذا دائمًا خير اندفاع أراه منها، ولكن عقلها كان يناضل في كل حين وينتصر على قلبها في أغلب الأحايين.

قالت بعد أن استقرت الفتاة في مكانها:

– ماذا نويت أن تفعل «بهذا»؟

سرت بجسمي رجفة عند سماعي لكلمة «هذا» الجامدة تستعمل في الإشارة إلى الفتاة، ونشأ في صدري سخط وغضب، فأمسكت عليهما في جهد عنيف، وساعدني على ذلك أني كنت لا أزال متشبعًا بتأملي الطويل الهادئ، ثم التفت إليهم جميعًا، وكانوا قد اجتمعوا من حولي ثانية في شكل دائرة، ووضعت يدي على جبين الضريرة، وقلت لهم بصوت رنان كأني في حفل مشهود:

– إني أعيد إلى الحظيرة الشاة الضالة!

ولكن امرأتي «أميلي» لا تقبل ولا تقر أن يكون في تعاليم الإنجيل أي شيء، مهما يكن ضئيلًا، خارج عن حيز المألوف أو بعيدا عن حدود المعقول أو فوق الطاقة، ومن أجل ذلك أدركت أنها ستحتج، فأشرت إلى «چاك» و«سارة»، ليأخذا الولدين الصغيرين إلى خارج الغرفة ففعلا. وكانا فضلًا عن ذلك قليل الفضول والتشوف بطبعهما.

ظلت زوجي بعد خروج الأولاد مبهوتة بادية الضيق والحيرة، وخيل إلى أنها مغيظة قليلًا من جراء بقاء الدخيلة معنا، فقلت لها:

– تستطيعين أن تتكلمي أمامها. إن الفتاة المسكينة يستبهم عليها اللفظ ويستغلق دونها المعنى.

وما أن فرغت من قولي حتى شرعت «أميلي» تحتج بأن ليس عندها ما تقول من غير شك–وهذه هي المقدمة المألوفة لأطول المناقشات التي تقع بيننا–وأنها لا تجد سبيلًا إلا أن تخضع كما هو الشأن دائمًا ما عسى أن أبتكر، مما يكون بعيدًا كل البعد عن الميدان العملي ومناقضًا كل المناقضة للأوضاع المأثورة والفكر السليم.

ولقد ذكرت فيما سبق أني لم أبت في أمر الفتاة، ولم أفكر، أو فكرت على الأرجح في غموض شديد، في أن من المستطاع إسكانها بدارنا. ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن «أميلي»، هي التي بدأت وأوحت إلى الفكرة لما سألتني: هل لم يدر في خلدي أننا بعددنا الراهن نملأ البيت ويكاد تضيق بنا حجراته؟! ثم أعلنت إلى أني أندفع دائمًا إلى إنفاذ ما أرى دون أن آبه لمقاومة الذين يفرض عليهم إتباعي، وأنها من ناحيتها تعتقد أن خمسة أولاد فيهم الكفاية، وقد قامت بواجبها في الحياة النسوية خير قيام وأدت حساب الأمومة على أكمل وجه منذ أن وضعت «كلود»، أصغر أبنائها (وفي هذه اللحظة على التحقيق شرع الطفل يبكي ويصرخ في مهده، كأنه كان في انتظار النطق باسمه ليجيب بالعويل)، وهي من أجل ذلك تشعر بأنها بلغت الغاية في بذل الجهد حتى أصابها الكلال والونى.

ولما رنت الكلمات الأولى من احتجاجها المرير في أذني، صعدت من أغوار قلبي إلى شفتي بعض جمل من أقوال المسيح فآثرت

احتجازها، إذ أدركت أن من فساد الذوق وإنكار اللياقة أن أحمي سلوكي بسياج من هيبة الكتاب المقدس وسلطانه. ولكنها لما ذكرت ما أصابها من الضعف والفتور، ذهل خاطري وإلتوى على الكلام وطما بي الخجل والاضطراب، إذ تذكرت في وضوح وجلاء أنني طالما تركت نتائج توثبي الطائش الذي تلهمني إياه حماستي، تقع على عاتق امرأتي وتثقل على نفسها. ومع ذلك، فإن هذه التهم التي وجهها إلي، قد ألقت على دروسًا في الواجب المفروض علي.

ولما هدأ بعض ما بي، ضرعت إليها في لين ورفق أن تستصرخ الأناة والروية لترى أإذا قدر لها أن تكون في مكاني، وأن يقع لها ما وقع لي، أكان في وسعها ألا تفعل مثل ما فعلت؟! وهل كان من السهل عليها أن تجد مخلوقًا لم يعد له في الحياة حقا من تلجأ إليه وتعتمد عليه، وتتركه فريسة المحنة صريع الكربة؟!

سكت قليلا ثم عدت أقول بأني لا أغذي نفسي مطلقًا بالوهم، فلا أنسى مبلغ التعب الجديد، في شتى الألوان والصور، الذي ستنتجه العناية بهذه الفتاة الضريرة، ويضاف ضغثًا على إبالة إلى أعباء البيت وهمومه. وجهرت لها بأسفي على أني لم أعد أستطيع مساعدتها أكثر مما أفعل على القيام بما تنوء بحمله.

ولما وفقت إلى تهدئة خاطرها جهد المستطاع، توسلت إليها مرة أخرى ألا تحمل الفتاة البريئة في صدرها حقدًا أو ضغينة، لأنها لم

ترتكب إثم يستوجب هذا الجزاء الأليم. ثم نبهتها في إيناس وعذوبة إلى أن «سارة» غدت في سن تمكنها من معاونتها أكثر مما مضى، وأن «چاك» أصبح في مقدوره أن يقوم بشأن نفسه في غير حاجة إلى عنايتها.

والخلاصة أن الله ألهمني الأقوال اللازمة في مثل هذا المقام، لكي أقنعها وأعبد لها السبل حتى تقبل ما أنا مستيقن بأنها كانت تنهض به عن طيب خاطر، لو كان الحادث قد ترك لها فسحة من الوقت لإعمال الفكر واستلهام الضمير، ولو لم أتصرف في إرادتها بالمباغتة على هذه الصورة.

اعتقدت أني أصبت النجاح وربحت القضية، لأن «أميلي»، العزيزة ما لبثت أن دنت من «چرترود» في حنان ورقة، ويدها المصباح لتتفرس فيها قليلًا. ولكنها وقفت فجأة وعاد هياجها إلى أفظع مما كان، لما أخذت مجامع عينيها قذارة الفتاة التي يعجز عن وصفها البيان، ثم قالت وهي تصرخ

– هذا تعفن! هذا نتن! نظف ملابسك..أسرع ونظف ملابسك..لا لا تفعل هنا..أخرج وطهر ثيابك مما علق بها..آه! رحمتك اللهم! ستغمر أولادي هذه القذارة! أليس في العالم شيء أخشاه مثل ما أخشى الديدان!

وفي الحق كانت الفتاة المسكينة مثقلة إلى درجة لا يمكن إنكارها

بهذين النوعين، ولم أستطع أن أحبس في صدري حركة اشمئزاز وتقزز، وأنا أفكر أني ضممتها إلى صدري في المركبة كل هذا الوقت الطويل.

نظفت ملابسي في الخارج وعدت إلى الغرفة بعد دقيقتين، فوجدت زوجي قد استلقت على أحد المقاعد متساقطة من الغضب والخور، ورأسها بين راحتيها شأن من يكابد برحاء الهموم. ولما دنوت منها وجدتها تعاني أزمة عادة من التنهدات العميقة، فقلت لها في لهجة رفيقة أشربتها الحنان الوفير:

– لم أقصد ألبته إلى أن أخضع صبرك وثباتك لتجربة مثل هذه. ومهما يكن من الأمر، فإن الوقت قد تقدم هذا المساء، وليس من السهل علينا أن نبصر جيدًا. سأسهر لأراقب النار التي ستنام الفتاة في دفئها وأتعهدها بالوقود من حين إلى آخر حتى لا تضعف أو تخبو. وغدًا سنقص شعرها ونغسل جسمها كما ينبغي، ولن تشرعي في العناية بها إلا حينما تستطيعين النظر إليها في غير نفور أو غضاضة.

ورجوت منها في النهاية ألا تتحدث إلى الأولاد في هذا الموضوع.

حانت ساعة العشاء، جلسنا جميعًا إلى المائدة، وأحضرت خادمتنا العجوز «روزالي» صحاف الطعام، وكانت في أثناء قيامها بخدمتنا، تصوب نحو الفتاة نظرات حادة تشع العداوة والبغضاء. أما «جرترود»، المسكينة فقد التهمت الحساء الذي قدمته إليها في شراهة عجيبة.

انقضى العشاء في سكون وصمت، وكنت شديد الرغبة في أن

أقص ما وقع لي وأتحدث إلى الأولاد وأحرك في نفوسهم أوتار الرحمة وأجعلهم يدركون ويحسون غرابة هذا البؤس المستبد الباغي وأهيج في صدورهم العطف على هذه الفتاة التي دعانا الله إلى إيوائها والبر بها، ولكني خشيت أن أبعث هياج زوجي تارة أخرى، فلزمت جانب الصمت، وكان أمرًا قد صدر إلينا بأن نصدف عن هذا الموضوع وننسى الحادث، مع أن كلينا لم يستطع دون ريب أن يفكر في شيء آخر سواه.

ذهب الأولاد بعد العشاء إلى مضاجعهم، ودلفت امرأتي إلى فراشها، فبقيت في الغرفة وحدي، أستوعب سوانح الآراء وخلجات النفس. وبعد انقضاء ساعة رأيت ابنتي «شارلوت» تفتح الباب في حرص وحذر، وتتقدم في بطء وهدوء وهي حافية القدمين وفي قيص النوم الفضفاض، ثم تلقي بنفسها على صدري وتحتضنني في قوة متوقدة وهي تجمجم قائلة: لقد نسيت أن أقول لك مساء الخير يا أبي!

نال هذا المنظر من نفسي منالًا كبيرًا حتى أخذ على التأثر شعاب الكلام فعينت عن الجواب. وكانت «شارلوت» شديدة الرغبة في أن ترى الفتاة ثانية قبل أن يرنق النوم في عينيها فجاءت سيرًا على حكم هذه الرغبة اللجوج.

وبعد لحظات أشارت بسباتها الصغيرة إلى «چرترود» النائمة في براءة تملأ العين والنفس وقالت في صوت خافت يكاد لا يسمع:

– لماذا لم أقبلها؟

– ستقبلينها غدًا. فلندعها الآن. إنها مستغرقة في النوم.

وفي أثناء قولي كنت أقودها برفق إلى الباب الذي دخلت منه، ثم عدت إلى جلستي وقضيت بقية الليل في القراءة وإعداد خطبتي الدينية القادمة حتى تبلج الصبح وتحلب ضوؤه إلى الغرفة.

ولقد فكرت في خلوتي وقلت لنفسي (وما أزال أذكر هذا) إن «شارلوت»، أظهرت اليوم من غير شك أنها أكثر عطفًا وأغزر حنانًا من إخوتها الكبار. ولكن ألم يبد كل واحد منهم في مثل سنها، هذه العواطف نفسها؟ حتى «چاك» أكبرهم أراء بعيدًا بمشاعره إلى حد الإغراق، متحفظًا في عشرته إلى حد البالغة..يعتقد الإنسان أن في قلوبهم رقة نامية، ولكنهم في الواقع يحذقون الظرف والمصانعة، ويجيدون التدلل والمداعبة.

٢٧ فبراير

تساقط الثلج أيضًا بغزارة هذه الليلة، والأولاد في نشوة الابتهاج؛ لأن الإنسان كما يقولون مهللين جذلين سيضطر في القريب العاجل إلى الخروج من النوافذ. والحقيقة أن الثلج كان يحاصر الباب في هذا الصباح، فلا يستطيع أحد أن يخرج إلى الطريق إلا من حجرة الغسل. وبالأمس لم يهدأ لي بال حتى ثبت لدي أن بالقرية من الطعام ما يسد حاجة أهلها، إذ أدركت أننا سنظل دون ريب بعض الوقت في عزلة عن بقية الناس.

وليس هذا هو الشتاء الأول التي تحاصر الثلوج فيه بيوتنا، وتأخذ علينا الطرق والمنافذ، ولكني لا أتذكر أني رأيته في السنين الخالية سميكًا كثيفًا إلى هذا الحد الذي يعوق الناس عن أداء أعمالهم وقضاء حاجتهم. وإني أنتهز هذه الفرصة لأستمر في كتابة القصة التي بدأتها بالأمس.

قلت إني لم أسائل نفسي قط كما ينبغي حينما اقتدت الفتاة الضريرة، عن المكان الذي تستطيع أن تشغله في البيت. وكنت أعلى مبلغ المقاومة الضئيلة التي ستبديها امرأتي، وأعرف المكان الذي كان في وسعنا أن نتصرف فيه، وأدرك تمام الإدراك حدود رزقنا الضيقة التي تكاد لا تتسع لحاجة الأسرة. ولكني أقدمت على ما فعلت، كدأبي دائمًا، مدفوعًا بالاستعداد الطبيعي الذي فطرت عليه، والمبادئ التي ارتضيتها وملكت على مشاعري، فلم أفكر لحظة واحدة في تقدير النفقة وقيمتها الحسابية التي تحملني فعلتي عبئها الفادح (وهذا ما ظهر لي دائمًا مخالفًا للإنجيل) يضاف إلى ذلك اعتمادي على الله، وارتكاني إلى شخص آخر يجنبني احتمال النتائج.

ولكني بعد ترو قليل أدركت في وضوح أنني ألقيت على كاهل امرأتي عبئًا ثقيلًا، فظللت أول الأمر في حيرة وخجل بالغين.

ساعدتها بقدر استطاعتي في قص شعر الفتاة، وقد رأيت جيدًا أنها تقوم بهذا العمل وهي تجاهد الاشمئزاز في دخيلتها. وجاء دور غسلها

وتنظيف جسدها اضطررت إلى ترك ذلك لزوجي تقوم به وحدها، وحمدت الله على أنه أنقذني من الاشتراك في هذه المهمة البغيضة.

والواقع الذي ينبغي الجهر به أن «أميلي» لم تنبس بعد ذلك بأقل تأفف أو احتجاج. وخيل إلى أنها أطالت التفكير أثناء الليل وأصبحت على قرار يحبب إليها هذا العبء الجديد. وبدا لي فضلًا عن هذا أنها ابتهجت بعملها بعض الابتهاج إذ رأيتها تبتسم حينها فرغت من تنظيف «چرترود» وإعدادها.

غطت رأسها الحليق بطاقية بيضاء بعد أن وضعت عليه بيدي طبقة رقيقة من مرهم كان عندي، ولبست بعض ثياب «سارة» الداخلية والخارجية النظيفة التي لم تعد تلائم نموها، وخلعت الأسمال القذرة فألقتها «أميلي» في نار الموقد.

ولا يسعني إلا أن أسجل هنا أن اسم «چرترود» إختارته ابنتي «شارلوت» ورضينا به على الفور لأننا نجهل اسم اليتيمة الحقيقي كما تجهله هي نفسها، ولم أدر كيف أصل إلى معرفته. وأيقنت بأن الفتاة أصغر سنًا من «سارة» لأن ملابس هذه لاءمت قوامها كل الملامة كأنها صنعت خصيصًا لها.

وأجد من الواجب الذي لا محيص عنه في هذا المقام أن أجهر بخيبة الأمل العميقة التي تملكت قلبي خلال الأيام الأولى. فقد وضعت لتربية «چرترود» منهجًا خصب الخيال، ولكن الحقيقة انقضت علي

وأرغمتني على تناوله بالحذف والتخفيف، ونفذ تعبير وجهها الدال على البله وعدم الاكتراث وظلمة العقل، أو على الأرجح تعبيره الأبكم الذي لا ينطق أبدًا بشيء، إلى أغوار عزمتي الخالصة التي خفقت في نفسي، فأطفأ حماستها المتأججة وقضى على نشاطها المتوثب.

كانت تمكث طوال النهار على مقربة من المصطلى أليفة الحذر حليفة الخوف والفزع متأهبة للدفاع عن نفسها في كل لحظة، فإذا سمعت أصواتنا، وعلى الأخص إذا أحست بدنو أحد منها، إكفهر وجهها وأشعرت قسماته الناظر إليها الجفاء والخشونة. وهذه القسمات البكاء لا تعبر عن شيء إلا حين تتلفع بالخوف والجهومة.

وإذا حاول أحدنا أن يسترعي انتباهها في هوادة ورفق، شرعت تئن أنينًا موجعًا وتملأ فضاء المكان بأصوات غريبة تشبه أصوات الحيوان حين تزمجر وتغضب، ولا تسكن من نفارها إلا حين أقدم إليها الطعام فتلتهمه في شراهة بهيمية هي من أشد ما يحرق النفس بالألم. وكما يولد الحب حبًا مثله ويستجيب له، كذلك شعرت لجمود هذه النفس العنيد بسيل من الكراهية يهمي على قلبي ويغمر مشاعري. أقول هذا حقًا وأعترف علانية أني شعرت باليأس يتسرب إلي في الأيام العشرة الأولى، وصدفت عن الاهتمام بأمر هذه الفتاة، وبلغت بي الحال حد الأسف على ما فعلت ووددت لو لم أكن شملتها بعطفي وجئت بها إلى بيتي.

ومما يستوجب العجب أن «أميلي» حين وقفت على عواطفي التي

عجزت عن إخفائها جيدًا عنها، أخذتها نشوة الظفر، وأسرفت في العناية «بجرترود» بقلب ملؤه أنقى ضروب الإخلاص فيما يظهر، من وقت أن شعرت بأن هذه الفتاة أصبحت عبئًا ثقيلًا علي، وأن إقامتها بيننا تخجلني وتخزيني.

وإني لفي هذه الحال، إذا صديقي الطبيب «مارتان»، من «فال ترافر» يسعدني بزيارته أثناء طوافه على مرضاه. ولما استقر في جلسته، قصصت عليه قصة «جرترود» فاهتم بها جد الاهتمام، وعجب أشد العجب لحالة التأخر والركود المطلق التي بقيت فيها إلى ذلك الحين، مهما تكن كفيفة البصر. ولكني شرحت له كيف أن الفتاة فضلًا عن عاهتها لم تعاشر غير عمة لها عجوز صماء لم تخاطبها قط، فبقيت التعسة إلى الآن صامتة جامدة مهملة إلى أقصى غاية الإهمال. ولما فرغت من شرحي أفهمني أنني في هذه الحال أكون مخطئًا إذا استسلمت إلى اليأس، فلم أدرك رأيه تمام الإدراك، فعاد يقول:

– تريد أن تشرع في البناء قبل أن تتثبت من صلابة الأرض وقوة احتمالها. اعلم بأن كل شيء في هذه النفس عماء وبلبلة، وأن الخطوط الأولى نفسها لم تحدد فيها بعد. وينبغي تأهبًا للشروع، أن تجمع بعض المشاعر الحسية والذوقية وتحكم الرباط بين أجزائها حتى تستسيغها الفتاة، كما تجمع الأعواد في حزمة، ثم تقدمها إليها في قالب نغمة أو كلمة تكررها على مسامعها في إصرار ومثابرة إلى حد المضايقة، ثم

تجهد حتى تحصل منها على ترديد ما سمعت.

وبعد أن شرح هذه الطريقة شرحًا وافيًا دقيقًا قال:

– وليس في هذه الطريقة كما تظن أثر من السحر. إني لم أخترعها، وقد لجأ إلى استعمالها كثير غيري قبل اليوم. ألا تتذكر؟ أنسيت أن أساتذتنا حينما كنا ندرس الفلسفة معًا حدثونا عن حالة مشابهة لهذه بمناسبة «كوندياك» وتمثاله الحي...

ثم استدرك وقال:

– أو ربما قرأت هذا بعد عهد دراستنا في إحدى مجلات علوم النفس... ما علينا! هذا الموضوع استرعى انتباهي واستحوذ على فكري جملة حتى أني ما أزال أذكر اسم الفتاة المسكينة التي لقيها في منتصف القرن الماضي طبيب من إحدى المقاطعات الإنجليزية التي لا أتذكرها وفرض على نفسه العناية بأمرها. كان اسمها «لورا بردجمان»، وهي أشد بؤسًا من «چرترود» لأنها كانت سجينة الصمم والحرص فضلًا عن العمي. وقد حرر الطبيب مذكرات يومية، كما ينبغي لك أن تفعل، سجل فيها درجات التقدم التي لاحظها على الفتاة، أو على الأقل بدأ بتدوين جهوده التي بذلها في تعليمها. ثابر أثناء أيام وأسابيع في إصرار وعزم على أن يجعلها تلمس وتتحسس على التعاقب شيئين صغيرين: دبوسًا وريشة للكتابة، ثم جعلها تحسس على ورقة مطبوعة مما يستعمل في تعليم العميان الحروف البارزة لكلمتي: دبوس وريشة. ولكنه بعد انقضاء

أسابيع لم يحصل على أية نتيجة، وخيل إليه أن جسم الفتاة غير آهل بنفس، ومع هذا لم ينطفئ في نفسه نور الأمل والثقة. وهو يقول في مذكراته: «مثلي كمثل إنسان محني على حافة بئر عميقة حالكة السواد يحرك الرشاء فيها تحريك اليائس أملًا في أن تمسك به يد إنسانية». وذات يوم، رأى هذا الوجه الجامد الخامل يضيء بما يشبه الابتسام البادئ. وإني أعتقد تمام الاعتقاد أنه حين امتلأت عينه بهذا المنظر، تفجرت منها دموع الشكر والحب، وخر جاثيًا يحمد الله على نعمته، إذ أدركت الفتاة بغتة ما أراد لها الطبيب: أنها أنقذت! منذ ذلك اليوم، تنبهت وألقت بالها لما تسمع، فتقدمت تقدمًا سريعًا، ولم تلبث أن أكملت ما يعوزها من المعرفة، ثم صارت إلى إدارة معهد للعمي–هذا إذا لم تخنى الذاكرة وتجعلني أتحدث عن فتاة غيرها..لأن حالات أخرى مشابهة ظهرت في الأيام القليلة الماضية وتحدثت عنها الصحف والمجلات طويلًا، وأعلنت بعضها العجب في قليل من السخف كما أرى، وردد البعض الآخر هذا العجب لمثل هذه المخلوقات كيف يتسنى لها أن تكون سعيدة. والواقع الذي لا مراء فيه أن كل واحدة من هؤلاء المحدودات ما إن تلقن كيف تعبر، حتى تقص أول ما تفعل مبلغ ما تنعم فيه من الهناءة. وطبيعي أن ينتهج الصحافيون إلى حد الدهش والذهول بهذه النتيجة، ويستخلصوا منها درسًا لهؤلاء الذين يستمتعون بحواسهم الخمس ولا يتحرجون من إبداء الشكاية والتململ..

وهنا قامت بيني وبين «مارتان»، مناقشة حادة، ثرت خلالها بتشاؤمه ولم أقر رأيه الذي اقتنصته من بين كلماته، القائل بأن الحواس لا عمل لها في الواقع إلا نشر الحزن والتبلبل في نفوس البشر..

فقاطعني محتجًا بقوله:

– ليس هذا ما أقصد إليه. أريد أن أقول فقط إن النفس الإنسانية تتمثل الجمال والرخاء والانسجام في رضى وسهولة أكثر مما تتصور الاختلال والفوضى والخطيئة التي تفسد هذا العالم في كل مكان وتدنسه وتمزقه وتلصق به الأقدار. والحواس هي التي تكشف لنا عنها وتساعدنا على إدراكها، ومن أجل هذا أفضل أن أصل عبارة فرچيل: «ما أسعد المزارعين» بالكلمات الآتية: «لو كانوا يجهلون المصائب التي تلم بهم» على أن أكملها بهذه الجملة التي نتعلمها: «لو تسنى لهم أن يدركوا ألوان النعمة التي يستمتعون بها». ما أهنأ الناس لو استطاعوا أن يجهلوا الشر!

ثم حدثني عن قصة للكاتب الإنجليزي «ديكنز»، يعتقد أن مثل «لورا بردچمان» ألهمه إياها، ووعدني بإرسالها إلى بعد وقت وجيز، وبعد انقضاء أربعة أيام تسلمت حقًّا «صرصار البيت» فقرأتها في لذة قوية عميقة. إنها قصة فتاة ضريرة فيها طول وإسهاب. وتلهب العواطف في بعض المواضع، نشأها أبوها وهو مستصنع لعب رقيق الحال عار من المال، ورباها في وهم الرفاهية والثراء والسعادة: وهذا كذب حاول

«ديكنز» بفنه أن يلبسه ثوب الخير والتقى، ولكني علم الله لن أفزع إلى مثله في تربية «چرترود» مهما تكن الظروف.

* * *

لم يكد يدركني اليوم التالي لزيارة «مارتان» حتى شرعت أجرب طريقته وأطبقها خير ما أستطيع. والذي آسف له الآن أني لم أدون الملاحظات كما نصح لي عن خطوات «چرترود» الأولى في هذه السبيل التي يكتنفها الغبش من كل جانب، حتى أني شخصيًا لم أقدها فيها إلا متحسسًا مواقع قدمي. وكنت خلال الأسابيع الأولى في حاجة إلى صبر قد لا يثبت عليه عقل، لا من جراء الوقت الذي تتطلبه هذه التربية الأولية فحسب، ولكن أيضًا من جراء اللوم التي جلبته علي. ويؤلمني القول بأن «أميلي» هي التي صبت على صنوف هذا التقريع. وإني على كل حال لم أسجل هذا في حديثي إلا لأني لم أحمل في صدري أية ضغينة أو إنفعال –وأؤكد ما أقول صراحة– فأحاول إخفاءه في أعماق النفس خشية أن تقرأ امرأتي هذه الأوراق في مستقبل الأيام (ألم يعلمنا المسيح الصفح عن ضروب الإساءة عقب ضربه مثل الشاة الضالة مباشرة؟). وأقول فضلًا عما سبق إنني في اللحظة التي يبلغ فيها ألمي من تأنيبها أقصى غايته، لا أحقد عليها لامتعاضها من طول الوقت الذي أقفه على «چرترود». وكل ما أخذته عليها حقًا أنها لم تكن تثق بأن عنايتي ستنتج أي أثر للنجاح المرجو. ولست أنكر أن فقدان الثقة هذا هو الذي

آلمني، ولكنه لم ينل من عزيمتي أو يدخل اليأس على نفسي. وطالما سمعتها تقول وتعيد القول «يهون الأمر لو كان من الميسور، مع ما تبذل من الجد وتفقد من الوقت، أن تحصل على أية نتيجة!» وظلت مستيقنه في إصرار العقل الضيق بأن جهودي تذهب كنفثة في بحر لجي، فكان من الطبيعي أن تنظر إلى نظرتها إلى الخارج على قواعد الأدب واللياقة حين أحبس على هذا العمل وقتًا كان من الأوفق استخدامه في أغراض أجدى علينا وأربح لصفقتنا. وفي كل مرة تراني مشغولًا بأمر الفتاة، تجد وسيلة تذكرني بها أن شيئًا أو شخصًا ما في انتظاري، وأني أمنح هذه الفتاة وقتًا كان من الواجب على أن أهبه أولادًا غيرها.

وإني أعتقد مستنير بما لاحظت، أن نوعًا من الغيرة هي غيرة الأمومة تستبد بنفسها، لأني سمعتها غير مرة تقول «إنك لم تشغل نفسك قط إلى مثل هذه الدرجة بأحد من أولادك وهم من صلبك وأقرب الناس إليك!». وفي قولها هذا الحق كله، لأني مع كلفي الشديد بأولادي، ما كنت أعتقد أن من المفروض على أن أشغل نفسي بهم أكثر مما ينبغي.

ولقد تبين لي في كثير من الأحيان أن مثل الشاة الضالة من أصعب الأقوال نفاذًا إلى بعض النفوس وامتلاكا لقبولها. وهذه النفوس على الرغم من ذلك تعتقد أنها متعمقة في الدين حريصة كل الحرص على إتباع أوامره، وهي لا تستطيع أن ترتفع بالإدراك فتصدق أن كل شاة من

القطيع على حدة يمكن أن تكون بدورها أعز على الراعي وأسمى قيمة عنده من بقية القطيع جملة. وهذه الكلمات «إذا كان الرجل مائة شاة، وضلت إحداها، ألا يترك التسعين والتسع الأخرى فوق الجبل في سبيل البحث عن هذه الضالة؟» أقول إن هذه الكلمات المشرقة بنور الرحمة، لو جرؤت على إبداء الرأي فيها صراحة تلك النفوس التي أشرت إليها، لأعلنت أنها أبعد ما تكون عن جادة الحق والإقساط.

ولكن بسمات «چرترود» الأولى واستني وقوت رجائي ومسحت ما بي من الألم وعوضتني من عنايتي بها المختلفة الصور عوضًا كريمًا، إذ أن «هذه الشاة إذا وجدها الراعي، بعثت في نفسه فرحًا أعظم مما تبعثه التسعة والتسعون الأخرى التي لم تضل قط». نعم إني أعلن هذه الحقيقة وأضيف إليها أن ابتسام أي ولد من أبنائي لم يغمر قلبي في لحظة من اللحظات بمثل هذا الفرح السماوي الذي شعرت به حين رأيت هذه البسمة تلوح ذات صباح على وجه الفتاة الجامد، وخيل إلى أنها بدأت على حين بغتة تفهم وتهتم بما كنت أبذل جهدي من أيام طويلة في تلقينها إياه.

اليوم الخامس من شهر مارس. لقد سجلت هذا اليوم كأنه تاريخ ميلاد، لأني رأيت منها فيه بسمة هي في الواقع انقلاب وتجل في صورة جديدة، إذ بعثت أجزاء وجهها فجأة وانتعشت ودب فيها دبيب الحياة. كان هذا أشبه بخطفة من البرق المباغت يماثل الضوء الضارب إلى لون

الأرجوان في جبال الألب العليا، الذي يسبق بزوغ الفجر ويلمع مهتزًا على قممها المغطاة بالثلوج، فيعين موقعها ويحسر عنها ظلمة الليل.

وحين رأيت إشراق وجه الفتاة، تمثل في نفسي أنه تلون صوفي انتشر في دخيلتها، وجعلني أتذكر ضوء جبال الألب وأنتقل بالفكر إلى حوض «بتزدا» في اللحظة التي هبط فيها الملاك وأيقظ في رفق ماءه الناعس.

استولى على نوع من الغبطة المادة الساحرة أمام الهيئة الملائكية التي استطاعت «چرترود» أن تبدو فيها بغتة، إذ وقع في وهمي أن ما استضافها في تلك اللحظة من الإدراك أقل بكثير من المحبة. حينئذ تملكني نزوع إلى الاعتراف بالجميل، فانتفضت قائمًا ووضعت على جبينها الوضاء قبلة كانت في ملتي واعتقادي مهداة إلى الله جلت قدرته آية الحمد والشكر.

* * *

بقدر ما كان الحصول على هذه النتيجة الأولى صعبًا قاسيًا، كانت خطوات التقدم بعد ذلك سهلة سريعة. وإني اليوم أعاني رهقًا شديدًا وأبذل جهدًا عظيمًا لأتذكر الوسائل التي لجأنا إليها والسبل التي فزعنا إلى سلوكها. وخيل إلي في بعض الأحيان أن «چرترود» تقدم في وثبات طوال متتابعة كأنها كانت تقصد إلى السخرية من الطرائق.

وما أزال أذكر أني أصررت أول الأمر على أن أقدم تعرفها بصفات

الأشياء على إحاطتها بكثرة أنواعها المختلفة، فبدأت: بالساخن والبارد والدافئ والعذب والمر والخشن والناعم والشف. ثم بالحركات: الابتعاد، الدنو، النهوض، التقابل، الرقاد، التفرق، التجمع، الربط، الحل إلى آخره..ولم يكد يمر بعض الوقت، حتى أعرضت عن كل طريقة ولجأت إلى التحدث إليها من غير أن أهتم كثيرًا بالإجابة على هذا السؤال الذي يمر بخاطري «أترى ذهنها يساير حديثي ويتفهمه؟» ولكني كنت أدعوها وأغريها في لطف وبطء التوجه إلى ما تشاء من الأسئلة. وليس من شك في أن عقلها كان يدأب على الحركة والعمل طوال الوقت الذي أتركها فيه تخلو إلى نفسها، لأني في كل مرة أعود إلى محادثتها، كانت تقدم إلى مفاجأة جديدة وتجعلني أشعر بأن كثافة الظلمة التي تفصل بيننا أخذت تخف وتتبدد شيئًا بعد شيء. وكنت أقول لنفسي «أليس كذلك ينتصر دفء الهواء وجلد الربيع رويدًا على قر الشتاء وقطوبه؟» وطالما أعجبت غاية الإعجاب بالطريقة التي يذوب بها الثلج، وتمثلته كمعطف تبلى بطانته وتتهتك، ويبقى ظاهره على حاله المألوفة. وكان العجب يتملك «أميلي» في كل شتاء فتعلن إلى «لم يتغير الثلج. يعتقد الإنسان أنه لم يزل متماسك الأجزاء والطبقات على حين أنه كما ترى يتخاذل وينهزم في مكان يتلوه آخر، وفجأة يفسح الطريق للحياة فتعود إلى الظهور».

خشيت أن يعتري السقم «چرترود» ويلازم وجهها الشحوب من

قبوعها الدائم على مقربة من المدفأة، فأردت لها الخروج من حين إلى آخر، ولكنها ما كانت تقبل أن تتريض إلا متكئة على ذراعي. وقد أدركت من العجب والخوف اللذين استوليا عليها حين اجتازت عتبة الدار، أنها لم تخرج إلى الطريق طول عمرها. نعم أدركت هذا من قبل أن تعرف كيف تعبر عنه وتجهر لي به. ولم يكن أحد في الكوخ الذي انتشلتها منه يعنى إلا بتقديم الطعام. إلا وتمكينها من أن تتجنب الموت جوعًا ولا أجرؤ أن أقول لتمكينها من أن تعيش. ومن أجل هذا كان عالمها القاتم محدودًا بحوائط الغرفة الوحيدة التي لم تغادرها قط. ولم تكن تغامر بالانتقال إلى عتبتها إلا في القليل النادر أيام الصيف حين يكون باب الكوخ مفتوحًا يكشف عن الكون الفسيح الساطع.

ولقد قصت على ذات مرة بعد انقضاء ردح من الزمن أنها كانت حين تسمع إلى تغريد الطير في أعوامها الماضية وتشعر بحرارة الوقد تداعب وجنتيها ويديها، تحسبهما أثرين خالصين من آثار الضوء، وكانت تجد من الطبيعي الذي لا شذوذ فيه، دون أن ترهق الفكر بالدقة على كل حال، أن الهواء إذا سخن شرع في الغناء كما يغلي الماء إذا وضع قريبًا من النار.

والحقيقة أنها كانت لا تشغل نفسها بأمر ولا تلقي بالها إلى أي شيء، وظلت تعيش في ركود عميق حتى جاء اليوم الذي بدأت فيه الاهتمام بشأنها. وما أزال

أذكر بشرها المتدفق كالسيل الذي لا ينضب معينه حينما عرفت مني أن هذه الأصوات الرقيقة تصدر عن مخلوقات حية ليس لها من عمل فيما يظهر إلا الشعور بفرح الطبيعة المبعثر المنثر، والتعبير عنه بأعذب النغمات (وهي من ذلك اليوم ألفت تردد هذه العبارة: إلى فرحة كطائر). ومع هذا فإنها لم تفد من هذه المعرفة، بل استولت على نفسها فكرة أمضتها وأقامت الحسرة والكآبة في نواحيها، هي أن هذه النغمات والألحان تعبر عن عظمة منظر لا تستطيع أن تتأمله كغيرها من بني الإنسان وقالت لي ذات مرة:

– هل حقيقة أن الأرض رائعة الجمال إلى هذا الحد الذي تتغنى به الطير؟ لم لا يفصح الناس عنه أكثر مما يفعلون؟ لماذا لا تحدثني عنه أنت؟ أتخشى أن تبعث الألم في نفسي إذ تعتقد أني لا أستطيع رؤيته؟ لست على حق فيما تذهب إليه. إني أرهف السمع لشدو الأطيار وأعتقد أني أفهم جيدًا كل ما تقول في لغتها الساحرة. فأجبتها لأواسيها وأرفه عن نفسها الألم:

– عزيزتي «چرترود» إن هؤلاء الذين يستطيعون رؤية العالم، يصعب عليهم أن يبلغوا شأوك في جودة الاستماع إلى غناء الطير.

فعادت تقول:

– لم لا تغرد أنواع الحيوان الأخرى؟

مثل هذه الأسئلة كانت في بعض الأحيان تباغتني بالدهش فأظل

لحظات ساهم الوجه بادي الاضطراب والحيرة، لأنها ترغمني على التفكير في أشياء كنت إلى ذلك الحين أتقبلها دون أن أجد فيها غرابة تدعو إلى العجب.

وكذلك استحوذتا هذه الأسئلة على ذهني وجلستي أستنتج للمرة الأولى، أن الحيوان كلما ازداد ثقله ودنوه من الأرض واشتد تعلقه بها، ازدادت آلامه واستمرت أحزانه. وهذا ما حاولت أن أشرحه للفتاة ليدخل في روعها وثبت عليه عقلها، ثم حدثتها استكمالا للشرح عن السنجاب وألعابه، فلما بلغت هذه النقطة سألتني هل الطير هي التي انفردت وحدها من بين سائر الحيوان بالتحليق في الجو؟ فقلت: كلا. هناك أيضًا الفراشة بأنواعها. فعادت تسأل «وهل تغرد وتصدح؟» فأجبت إن لها طريقة أخرى تعبر بها عن فرحها، وهذه الطريقة مكتوبة على أجنحتها في قالب ألوان شتى، ثم وصفت لها ما تمتاز به الفراشة من مختلف النقوش والوشي في إسهاب ودقة.

* * *

٢٨ فبراير

أعود بالرواية إلى الخلف قليلًا، لأني أرخيت بالأمس العنان لنفسي، فحق علي اليوم أن أجيء بالحديث على سرده وأرجع به إلى مساقه.

كان علي، لكي أعلم «چرترود» به حروف الهجاء الخاصة بالعمي أن أتعلمها قبل الشروع في إلقاء الدروس ففعلت. ولكن الفتاة لم تلبث أن تفوقت علي وصارت أكثر مني سرعة ومهارة في قراءة هذه الكتابة التي كنت أجد صعوبة ألية في استنطاقها، وأتتبع حروفها فضلًا عن ذلك بعيني في رضى وراحة أكثر من تتبعها بأصابعي. وعلى كل حال لم أكن الشخص الوحيد الذي يعلمها، وكنت سعيدًا مبتهجًا أول الأمر بأن أجد إنسانًا يعاونني على القيام بهذا الضرب من العناية، حتى أستطيع أداء أعمالي الكثيرة المرهقة في أنحاء المقاطعة ذات البيوت المبعثرة المتباعدة التي ترغمني زيارة المرضى والمعوزين من أهلها في كثير من الأحيان على قطع آماد بعيدة مضنية.

وجد ابني «جاك» طريقًا إلى كسر ذراعه أثناء إستراضته ذات يوم من أيام العطلة في عيد الميلاد عقب مجيئه لتمضيته معنا—وكان قد عاد منذ زمن إلى (لوزان) التي أكمل فيها دروسه الابتدائية، ودخل كلية أصول الدين فيها.

ومن حسن الحظ أن الكسر لم يكن بذي خطر، ولما استدعيت الطبيب «مارتان» في الحال، استطاع أن يعالجه بغير حاجة إلى جراح، ولكن الحيطة اللازمة في مثل هذه الحال أرغمت «جاك» على البقاء في البيت أيامًا لا يبرحه. وعلى حين بغتة بدأ يعطف على «چرترود» ويهتم بمساعدتي في تعليمها القراءة، وقد كان إلى ذلك الحين لا يكاد يشعر بها أو يأخذها ببصره.

لم يستمر تعاونه معي إلا الفترة الضرورية لنقهه واستكمال صحته، أي ما يقرب من ثلاثة أسابيع تقدمت أثناءها «چرترود» تقدمًا ملموسًا يستدر الإعجاب وأظهرت غيرة خارقة للمألوف في تعشق الدروس والانكباب على استذكارها، فكأن هذا الإدراك التي كان إلى الأمس القريب غارقًا في الخمول قابعًا في الجمود، لم يكد يسير بعض خطوات حتى طفق يعدو من قبل أن يعرف المشي ويتقنه. ولشد ما أعجبت بالصعوبة الضئيلة التي تلاقيها في إيجاد الصيغة الملائمة لأفكارها، وبالسرعة التي تصل بها إلى التعبير وعن الأشياء التي تعلمها معرقها أو التي تحدثها عنها ونصفها لها حين تعجز عن وضعها في متناول إدراكها مباشرة، إذ أننا كنا نستخدم دائمًا كل ما يمكن أن تلمسه أو تشعر به في شرح ما لا تستطيع الوصول إلى معرفته من طريق اللمس أو الشعور، سيرًا على منوال «عدادات المسافات»، وطريقتها في التعبير لم تكن صبيانية، بل ناضجة صحيحة، ولكنها كانت تستعين بأكثر التراكيب ظرفًا وأشدها بعدًا عما ننتظر ونألف لتبرز الفكرة في أجلى الصور وأوضح الأشكال.

وإني أعتقد أن من العبث ذكر الدرجات الأولى التي قطعتها هذه التربية لأنها تماثل ما يصادف في تعليم العمي جميعًا. ودليلي على ذلك أن كل مدرس يقع في الارتباك عينه حين يعرض لمسألة الألوان مع كل ضرير (وفي هذا الظرف أرى لزامًا علي أن أقول: إن الألوان لم تذكر في

أي مكان من الإنجيل). ولست أدري كيف ظهر غيري من المعلمين على هذه الصعوبة، ولكن من ناحيتي بدأت بأن أسمي لفتاتي ألوان المنشور وفقًا للترتيب الذي يقدمه إلينا قوس قزح.

ولم أكد أفعل هذا حتى نشأت في ذهنها حيرة وقام فيه اختلاط بين اللون والضوء، ولاحظت أن مخيلتها لا تصل إلى التمييز بين نوع الفروق الدقيقة وبين ما يسميه المصورون فيما أعتقد «القوة أو القيمة أو المدى». وقد لقيت رهقًا شديدًا في فهم هذا الموضوع: إن كل لون بدوره يجوز أن يكون له درجات مختلفة في مبلغ القتامة مثلًا، وأن من المستطاع أن تمتزج الألوان جميعًا فيما بينها إلى ما لا نهاية. ولما فهمت ما أقول، ملك عليها الموضوع مشاعرها واستأثر بإعجابها الشديد، فكانت لا تني عن العودة إليه والكلام فيه.

وشاءت المصادفة بعد ذلك أن أذهب بها إلى مدينة (نيوشاتل) حيث استطعت أن أدخل على نفسها مسرة جديدة، هي حضورها حفلة موسيقية تستمع فيها إلى مختلف الألحان والنغمات. وانتهزت فرصة الدور الذي تقوم به كل آلة في «السمفونية» لأعود إلى الحديث في موضوع الألوان، فنبهت «چرترود» إلى أنواع الرنين المختلفة التي تصدر عن الآلات النحاسية والخشبية ذات الأوتار، وشرحت لها أن كل واحدة من هذه الآلات تستطيع أن تردد على طريقتها في شدة من الصوت تختلف ارتفاعا وانخفاضا جميع نغمات السلم الموسيقي، من أشدها

غلظًا إلى أكثرها حدة .ثم سألتها أن تتمثل لنفسها على هذا المنوال في الطبيعة، أن اللونين الأحمر والبرتقالي يتناسبان مع رنين الصور والبوق ذي الأنبوبتين، واللونين الأصفر والأخضر مع رنين الكمان والربابة الكبيرة (الفيولونسل) والبم (أي الكمان الكبيرة)، واللونين البنفسجي والأزرق يمثلهما في الألحان ما يصدر عن الناي والزمارة والأرغول. ولم أكد أفرغ من قولي هذا، حتى امتلأ صدرها بنشوة الفرح فقضت على ما فيه من شكوك، وانطلقت تقول وتكرر: «ما أجمل هذا! لابد أن يكون رائعًا خلابًا».

وبعد قليل قالت على حين بغتة «ولكن خبرني..واللون الأبيض؟ لم أفهم بعد أي شيء يشبه هذا اللون..».

وفي الحال أدركت مبلغ ما في المقارنة التي إستصرختها من الوهن، ثم حاولت أن أجيب فقلت:

– اللون الأبيض هو الحد الأعلى الذي تختلط عنده جميع الألحان والطبقات الموسيقية كما أن اللون الأسود هو حدها الداجن أو الأسفل.

ولكن هذا الشرح لم يرضني ولم يقنعها، فنبهتني على الفور إلى أن الآلات الخشبية والنحاسية وأنواع الكمان تظل نغماتها واضحة مميزة في حالتي غلظ الصوت وحدته.

اختلط علي الأمر وأخذني العي والحيرة، كما وقع لي معها في كثير

من الأحيان والظروف، ثم بحثت في طيات عقلي عن مقارنة أستعديها على إرتباكي فقلت بعد لأى:

– إذن إصغي إلي: تصوري اللون الأبيض كأنه شيء نقي لا لون له، ولكن فيه نور فقط، واللون الأسود على النقيض من ذلك، كأنه شيء مثقل باللون في جميع أجزائه إلى حد الظلمة..

وإني لا أسجل هنا هذه الأطراف من الحديث المتبادل بيننا إلا لأبين مثلًا من المصاعب التي عثرت بها كثيرًا.

ومن المزايا الجميلة التي تحلى بها «چرترود» أنها لا تدعي الفهم مينًا كما يفعل كثير من الناس إذ يزحمون أذهانهم بفروض وقضايا خاطئة أو تفتقر إلى البحث والتمحيص، فينتج عن هذا أن تكون حججهم ومرات فكرهم مهلهلة فاسدة تخللها العيوب من كل جانب؛ أما هي فكانت تظل أليفة الضيق والقلق، ما دامت لا تصل إلى تكوين فكرة واضحة عارية من اللبس والغموض عن أي تصور ذهني. ومن أجل هذا ازدادت الصعوبة التي ألاقيها، لأن معنى الضوء كان متصلًا في عقلها اتصالا وثيقًا بمعنى الحرارة، فبذلت غاية الجهد وعانيت أشد الألم حتى استطعت أن أقطع هذه الصلة القائمة خطأ بين مسميين متباينين.

وكذلك كنت أجرب خلالها بغير انقطاع مبلغ الاختلاف بين العالم البصري وعالم الأصوات، وأرى إلى أي مدى تكون عرجاء كل مقارنة يحاول الإنسان أن يستخلصها من أحد العالمين لإيضاح العالم الآخر.

٢٩ فبراير

ألهتني المقارنات وعاقتني عن ذكر الفرح الوفير الشامل الذي بعثته في نفسها حفلة «نيوشاتل» الموسيقية، حيث كان الفنانون يعزفون على وجه التحقيق «السمفونية الريفية». وأقول على وجه التحقيق، لأني لو تمنيت أن أسمعها لحنًا، لما تمنيت خيرًا من هذا، والسبب سهل الفهم لا يعوزه الإيضاح. وبعد أن غادرنا مكان الحفلة بوقت طويل، ظلت «چرترود» صامتة وكأنها غارقة في الدهش والنشوة. ولما استفاقت قليلًا، سألتني:

– أصدقني القول، هل ما تراه ويقع تحت بصرك جميل حقًا مثل هذا؟

– جميل مثل ماذا يا عزيزتي؟

– مثل «هذا المنظر على حافة الغدير».

تريثت في الجواب، إذ هداني الفكر إلى أن هذه الألحان والنغمات المستبهمة التي يصعب بيانها، تصور العالم، لا كما هو في الواقع، ولكن كما كان من المستطاع أن يكون، وكيف يكون إذا خلا من الشر والخطيئة. ولم أكن إلى ذلك الوقت قد جرؤت على التحدث إلى «چرترود» في شأن الخطيئة والشر والموت.

ولما خفت أن يثقل عليها صمتي، قلت:

– إن الذين يبصرون، لا يدركون سعادتهم.

فصاحت على الفور قائلة:

– ولكنني أنا التي لا أملك نور العين، أدرك سعادة السمع.

ثم التصقت بي ونحن سائران وأحسست بجسمها الرخص يثقل في رفق على ذراعي كما يفعل الأطفال الصغار. وبعد هنيهة قالت:

– سيدي الراعي، أتشعر بمبلغ سعادتي؟ لا، لا..إني لا أجهر بهذا مجاملة لأدخل على نفسك السرور. أنظر إلي. ألا تبدو الحقيقة في أسارير الوجه حين ينطق الإنسان بغيرها؟ تستطيع أنت أن تراها، أما أنا فإني أدركها من الصوت. أتذكر يوم أجبتنى بأنك لم تبك بوم أنبتك خالتي (هكذا كانت تسمى امرأتي) على أنك لا تعرف أن تقوم لها بأي عمل؟ لقد صحت في وجهك: سيدي الراعي، إنك تكذب! أوه! لقد شعرت ببكائك في الحال، وأدركت من نبرات صوتك أنك تخفي عنى الحقيقة. لم أكن في حاجة إلى لمس خديك لأعرف أن عبراتك كانت تسيل عليهما من عينيك. ثم كررت هذه الجملة بصوت مرتفع: «نعم لم أكن في حاجة إلى لمس خديك».

صعد الدم إلى وجنتي حين رنت هذه الكلمات في أذني، لأننا كنا لا نزال في المدينة، وكان بعض السابلين يلتفتون إلينا في الفينة بعد الفينة. ومع هذا استمرت في حديثها:

– لا تحاول أن تضرب من حولي سياج الوهم والغرور، لأن من الجبن أن يخدع الإنسان فتاة ضريرة..

سكتت قليلًا وقالت ضاحكة:

– ثم لأن هذه المحاولة لا تجدي ولا تنل مني ما ترمي إليه. خبرني يا سيدي الراعي، إنك لست تعسًا، أليس كذلك؟

تناولت يدها ورفعتها إلى شفتي، كأنما أردت أن أشعرها في صمت يجنبني الاعتراف، بأني مدين لها بجزء من سعادتي، ثم أجبت خلال هذه الحركة:

– كلا يا «چرترود»، كلا لست تعسة. وكيف أكون كذلك؟

– ومع هذا تبكي في بعض الأحيان.

– نعم بكيت.

– ألم تبك منذ ذلك اليوم الذي ذكرتك به؟

– كلا، لم ينهل دمعي منذ ذلك اليوم.

– وهل لم تعد تميل إلى البكاء؟

– كلا يا «جرترود».

– وهل شعرت في الأيام الماضية بالرغبة في كتمان الحقيقة عني؟ تكلم ولا تنكر.

– لا يا ابنتي العزيزة.

– أتعدني ألا تلمس السبل إلى خديعتي؟ أتستطيع؟

– لك حكمك وبين يديك وعدي.

– جميل هذا. أجبني على الفور.. أجميلة أنا؟

بهت عند سماع هذا السؤال المباغت، إذ لم أشأ حتى ذلك الوقت أن ألقي بالي إلى جمال «چرترود» الذي لا ينكر، وكنت أرى فضلًا عن ذلك من العبث المحض أن يشعرها أحد بما هي عليه من حسن وروعة.

ولما تمالكت نفسي سألتها:

– ولماذا تهتمين بمعرفة ذلك؟

– إن هذا الموضوع هو همي الذي يجتال في ذهني ويعتلج بين جنبي. أريد أن أعرف أني... كيف تعبر أنت؟ أني لست لحنًا شاذًا في السمفونية فكيف ترى؟ إلى من غيرك أوجه السؤال يا سيدي الراعي؟

فأجبتها لأدافع عن نفسي جهد المستطيع:

– إن رجل الدين لا يحفل بمجال الوجوه ولا تسترعي انتباهه روعة القسمات.

– ولماذا؟

– لأنه يجد في جمال النفوس الغناء كله.

فقالت وقد زمت شفتها في حركة غضب ساحرة:

– إذن تفضل أن يلهمني صمتك الاعتقاد بأني دميمة الحلقة قبيحة التكوين.

لم أستطع صبرًا بعد هذا فصحت قائلًا:

– «جرترود» تعلمين حق العلم أنك جميلة.

فلزمت جانب الصمت وغشت وجهها سحابة من الجد لم تفارقه حتى عدنا إلى البيت.

* * *

لم نكد نعود حتى استقبلتنا «أميلي» بفتور وجهومة ووجدت الوسيلة التي تشعرني بها أنها تستهجن ضياع اليوم على هذه الصورة. وكان في وسعها أن تنصح لي بما ترى قبل أن نخرج، ولكنها رأتنا نغادر المنزل فلم تقل كلمة نستشف منها مضمر طويتها شأنها في كل حين وحال، لتحتفظ بالحق في توجيه اللوم حين تحلو لها أن تفعل.

وهي في الحق لم تلجأ في التأنيب إلى الكلمات، ولكنها اقتصرت على الصمت البليغ الناطق بالاتهام الأليم. ألم يكن من الطبيعي، وهي تعرف أني ذاهب «بجرترود» إلى حفلة موسيقية أن تسألنا عما سمعنا، وأن ترى الفرح المترقرق في وجه الفتاة وتدرك أنه يزداد ويعظم حين تشعر من جانبها بأقل اهتمام بأسباب غبطتها؟

ولكن «أميلي» لم تصبر على الصمت طويلًا، فشرعت بعد قليل تتكلم. وخيل إليها أنها لكي تشرب أقوالها في هذا المقام بعض الرقة والحنان، ينبغي ألا تتحدث إلا عن أشياء تافهة واهية الرباط. ولما فرغنا من العشاء وذهب الأولاد إلى مضاجعهم، انتبذت بها ركنًا من الغرفة حتى لا تسمع الفتاة إلى حديثنا وسألتها في حدة وخشونة.

– أكدر صفو مزاجك أني ذهبت «بچرترود» إلى الحفلة الموسيقية؟

فأجابت بلا تردد كأنما كانت تشرئب إلى السؤال:

– إنك تعمل لها ما لا ينتظر أن تعمله لأحد من أبنائك.

وهذا هو دائمًا محور الشكاية ووجه التظلم، وهو الذي يلهمها في عناد وإصرار رفض الاقتناع بأن من عادة الإنسان أن يحتفل بالطفل العائد وليس بالأطفال المقيمين، وفقًا لدلالة المثل الذي ضربه المسيح. وآلمني فضلًا عن هذا أنها لا تقيم وزنًا لعاهة «بچرترود» التي لا يمكن أن تطلع بالأمل إلى متعة أخرى غير الاستماع إلى الموسيقى. وإذا كانت العناية الإلهية قد هيأت لي أسباب الفراغ في ذلك اليوم على غير المألوف لكثرة الأعمال التي تتطلب مني سرعة الإنجاز في الخارج، فليس هذا سبباً يبرر لوم «أميلي» الجائر.

يضاف إلى ذلك أنها تعلم علم اليقين أن كل واحد من أولادي لديه عمل يؤديه أو تقعده عن الخروج ملهاة ومشغلة، وأنها هي نفسها لا

تتذوق الموسيقى ولا يمكن أن تمر ببالها فكرة الذهاب إلى حفلة من هذه الحفلات الفنية مهما يتح لها من الفراغ، ولو أقيمت على عتبة الباب. ومما زاد في حزني أن «أميلي» جرؤت على التفوه بكلماتها الموجعة أمام «جرترود». ومع أني ملت بها إلى ركن من الغرفة، إلا أنها رفعت صوتها حتى بلغ مسامع الفتاة.

شعرت حينئذ في أغوار نفسي بسخط شديد طغى على ما فيها من الحزن والاكتئاب. ولما غادرت امرأتي المكان بعد قليل من الوقت دنوت من «جرترود» وتناولت يدها الهزيلة ورفعتها حتى لامست وجهي وقلت لها:

أترين؟ لم أبك هذه المرة.

فأجابتني وهي تحاول أن تبتسم لتسري عني بعض ما بي:

نعم لم تبك أنت.. إنه دوري هذه المرة.

وتطلع وجهها الجميل إلي، فرأيته قد غمرته الدموع.

٨ مارس

كل ما أستطيع إهداؤه إلى امرأتي من المسرة هو أن أتجنب فعل ما يثير السخط في صدرها. وأمارات الحب السلبية المحض هي التي تأذن لي في إظهارها دون سواها. فإلى أية درجة ضيقت الخناق على حياتي وحصرتها في أضيق نطاق! هذا ما لا تستطيع أن تقدره ولا يقع لها

في حسبان! ولشد ما أتمنى أن تسألني أداء عمل تهول النفس صعوبته! إنها لو فعلت لنهدت لأشق الأعمال وأعظمها خطراً، ولكنها غريبة الطبع، وكأني بها تعاف كل ما هو خارج عن الأوضاع المأثورة، حتى أن التقدم في حياة البشر ليس في ملتها إلا إضافة أيام متشابهة الصور والألوان إلى أمثالها الماضية. وهي من أجل هذا لا تتمنى، بل لا تقبل أن ترى مني فضائل جديدة، ويدفعها الغلو في هذا المضمار إلى النفور الشديد من أن ترى الفضائل المتعارفة تنمو وتزدهر. وفضلا عن ذلك تنظر بعين القلق، إن لم يكن بعين السخط والغضب، إلى أي جهد تبذله كل نفس تروم أن ترى في المسيحية شيئاً آخر غير إستئناس الغرائز.

ولم أزل أذكر أني ذهبت ذات يوم إلى «نيوشاتل» ونسيت أن أمر ببائعة الخردوات التي تتعامل معها لأؤدي ما لها في ذمتنا، وأبتاع علبة خيط كما طلبت مني «أميلي» عند مبارحة البيت.

خفت النتائج التي قد تستخلصها من هذا النسيان التي آلمني وجعلني أشعر باستياء من نفسي أكثر درجات من الذي توقعت أن يستولى عليها، وعلى الأخص لأني عاهدت نفسي على إنفاذ ما طلبت واضعًا نصب عيني أن الوفي في صغائر الأمور يكون كذلك في الكبير منها والخطير. ولست أغالي إذا قلت إني تمنيت أن توجه إلي بعض اللوم، لأني كنت أستحقه في هذا الظرف دون ريب، ولكن الشكاية القائمة على الوهم والخيال طغت في نفسها على التهمة الصريحة

المحكمة، كما يحدث في أغلب الأحيان. آه! ما كان أجمل الحياة، وما كان أخف عبء البؤس الذي نحتمله، لو كنا نرضى ونقنع بالآلام الحقيقية الكائنة دون أن ننصت لأطياف عقلنا ومردته..

ولكن ما لنا ولهذا! لقد استرسلت في الحديث وكدت أدون هنا ما هو أقرب إلى أن يكون موضوع عظة دينية (إنجيل متى إصحاح ١٢ آية ٢٩) «لا تدع للقلق سبيلا إلى نفسك».

أعود الآن إلى جوهر الموضوع الذي اعتزمت أن أسرده، وهو تاريخ يبين نمو «جرترود» الفكري والخلقي.

كنت أرجو أن تتهيأ لي الأسباب التي تعينني على تسجيل هذا النمو وتطوره خطوة خطوة، وبدأت برواية ما يمس هذا الموضوع من التفاصيل. ولكن عاقني عن إتمام ما أردت أن الظروف لم تمنحني من الفراغ ما يكفي في تدوين جميع الوجوه والنواحي بالدقة المطلقة، وأن من العسير علي اليوم أن أوفق إلى التسلسل المحكم التي يتطلبه الترتيب والمنطق.

دفعتني قصتي دفعًا فجعلتني أقدم في الذكر والتسجيل آراء تولدت في ذهن «جرترود» من خلجات نشأت في نفسها ومحادثات جرت بيننا كان ينبغي أن يتأخر موضعها من الرواية حرصًا على توخي الضبط في السرد، وكل إنسان ستتيح له المصادفة قراءة هذه الصحائف، سيتملكه الدهش من غير شك حين يجد الفتاة تعبر بعد وقت قصير عما تحس بمثل هذه الدقة وتفكر في مثل هذا الإحكام.

وفي الحق كان تقدمها سريعاً يحير العقول ويبعث في النفس إكبارًا مشوبًا بالذهول: وطالما أعجبني كيف كان إدراكها يختطف في نهم شديد ما أقدمه إليها من الغذاء العقلي وما تستطيع الاستيلاء عليه منه، وكيف كانت تبذل الجهد المتواصل حتى تلائم بينه وبين نفسها وتنضجه تمام النضج ثم تهضمه سهلاً سائغًا كأنه لم يكن طريفًا ولا غريباً. وكانت تلاحق فكري بغير انقطاع وتسبقه فتخلف في نفسي الدهش الشديد. وكثيراً ما كنت، من درس إلى درس، أكاد أنكر تلميذتي وأحسبها شخصًا آخر لم أعرفه من قبل.

وفي نهاية أشهر قليلة، لم يعد يبدو عليها أن إدراكها عانى الركود طوال الأعوام الماضية. وقد أظهرت بعد هذه الفترة الوجيزة على غير المألوف، من الحكمة ما لا تظهر الكثرة من الفتيات اللاتي يشتت العالم الخارجي أفكارهن وتستأثر شتى البلابل الواهية بخير انتباههن.

وفوق ذلك كانت فيما أعتقد أكبر سناً بدرجة محسوسة مما اعتقدنا أول الأمر. ولما تبين لي بالملاحظة أنها تفيد من العمى وتحيل مرارته إلى مصدر عذب تستقي منه المنفعة، ملت إلى الاعتقاد بأن عاهتها قد تكون من جملة نواحي نعمة أسبغت عليها. وعلى الرغم مني قارنتها «بشارلوت». ولما كنت في بعض الأحيان أساعد أبنتي في استذكار دروسها، كنت أرى ذهنها يتلهى بأضعف الهوام السابحة في فضاء المكان، فأقول لنفسي: «مهما أقلب الأمر على وجوهه، أجد أنها

لو كانت لا ترى ما حواليها من الأشياء، لأصغت إلى خيراً مما تفعل!».

لست في حاجة إلى القول إن «جرترود» كانت كلفة أشد الكلف بالمطالعة، ولكني كنت حريصًا على أن أصاحب فكرها جهد المستطاع، ومن أجل هذا كنت أفضل ألا تقرأ كثيرًا، أو على الأقل ألا تكثر من القراءة بمفردها وفي غيبتي، وعلى الأخص في الكتاب المقدس، وهذا يبدو غريبًا أن يصدر عن بروتستانتي.

سأبين ما أستبهم في هذه النقطة. ولكن قبل أن أعرض لهذا الموضوع الخطير، أريد أن أسرد حدثاً صغيراً يتصل بالموسيقى وينبغي أن أضعه في قصتي، إذا لم تخدعنى الذاكرة، بعد حفلة «نيوشاتل» بزمن قصير.

أقيمت هذه الحفلة كما أعتقد قبل العطلة الصيفية التي أعادت إلينا «جاك» بثلاثة أسابيع. وأثناء غيبته كنت كثيرًا ما أجلس «جرترود» أمام أرغن كنيستنا الصغيرة التي تختص به عادة الآنسة «دى لا. م..»، وهي التي تقيم الفتاة عندها في الوقت الحاضر (بالنسبة للزمن المساير لحوادث القصة).

لم تكن الآنسة «لويز دى لا. م..» قد شرعت إلى ذلك الوقت في تعليمها الموسيقى، وعلى الرغم من حبي لهذا الفن، فإني ضعيف الدراية به، وكنت أشعر بأني لا أملك من الكفاية والجدارة ما يؤهلني لأن أعلمها شيئًا البتة، وتوكد هذا الشعور لما جلست حذوتها لأصاحب أصابعها على المعزف، إذ قالت بعد لحظات من الشروع في العزف:

كلا.. أرجو أن تدعني.. إني أفضل أن أتدرب بمفردي.

لم يسعني إلا أن أغادرها عن طيب خاطر، لأن البيعة من ناحية مكان مقدس يتطلب الوقار والاحتشام ويفرض الإجلال والاحترام فلا يصح أن ألبث معها فيه منفردين، ثم لأني من ناحية أخرى كنت أخشى همسات الناس ولغطهم مع أني كنت أجتهد عادة في ازدراء القالة وتجاهل أمرها ولكن الشبه قد تطير في هذا الظرف من حول الفتاة وترجمها الظنون أيضًا، وهذا ما كنت أحاول اتقاءه جهد الطاقة.

وكلما كنت أخرج لأداء الزيارات التي يفرضها علي الواجب وتكون مواضعها قريبة من الكنيسة، كنت أستصحب الفتاة معي إليها وأتركها فيها تنتظر الساعات الطوال في كثير من الأحيان حتى أنجز أعمالي وأعود إليها فنأخذ سمتنا إلى البيت معًا. وهي لكي تتجنب الملل، كانت تشغل نفسها في صبر وجلد باستكمال ما لم تعرفة من النغمات، فكنت إذا رجعت إليها في المساء، رأيتها شديدة اليقظة والانتباه أمام لحن من الألحان يغمرها بفيض طويل الأجل من نشوة الغبطة وسحر الجذل.

منذ ستة أسابيع أو تزيد قليلًا، وكان ذلك في الأيام الأولى من شهر أغسطس، أبلغت «جرترود» البيعة وذهبت لمواساة أيم عجوز لم أجدها في دارها، فعدت أدراجي على الفور لأقود الفتاة إلى البيت، ولم تكن تنتظر أوبتي بمثل هذه السرعة. ولشد ما أستحوذ على الدهش وأخذتني هزة المفاجأة حين رأيت ابني «جاك» معها.

لم يشعر كلاهما بدخولي، لأن الصوت الذي نشأ عن خطواتي كان ضعيفًا طغت عليه نغمات الأرغن فأخفته. وليس من طبعي التجسس واستراق السمع، ولكن كل ما يمس «جرترود» يملك على قلبي ومشاعري.

سرت حينئذ على أطراف أصابعي حتى لا يحدث وقع أقدامي أي صوت، وصعدت متسللًا على درجات السلم القليلة المؤدية إلى المنبر حيث أستطيع الملاحظة على خير وجه، وأقول هنا اعترافا بالحق، أنني لم أسمع من أحدهما أو كليهما طوال المدة التي لبثتها في مرصدي كلمة نابية لا يصح أن تقال في حضرتي، ولكن «جاك» كان واقفاً أمامها ورأيته مرات متعددة يتناول يدها وينقل أصابعها على أصابع المعزف، فقلت في نفسي: «أليس غريبًا أن ترضى من «جاك» بما رفضت قبوله مني؟» كان دهشي وألمي من الشدة بحيث لم أجرؤ على الاعتراف بهما لنفسي، ولم ألبث إلا قليلاً حتى اعتزمت التدخل، ولكني لم أكد أشرع في إنفاذ ما أنتويت، حتى رأيت «جاك» يخرج من جيبه ساعته على حين بغتة، ويقول:

_ حان الوقت. ينبغي أن أذهب، فإن أبي على وشك أن يعود.

رأيته حينئذ يرفع يدها الراضية المستسلمة إلى شفتيه، ثم يندفع نحو الباب. انتظرت لحظات حتى أطمئن إلى خروجه، ثم نزلت على السلم في خفة وحذر وفتحت باب البيعة وقصدت إلى أن تسمع الفتاة

صوته حتى تعتقد أني آت من الخارج، ثم بادرتها بقولي:

ــ جرترود!! أعلى استعداد أنت للعودة؟ وكيف حالك مع الأرغن؟

فأجابت بصوت طبيعي لا تشوبه شائبة من القلق أو الانفعال:

نعم على أتم استعداد. لقد حصلت اليوم حقًا على بعض التقدم.

تضيف قلبي حزن يرفض له صبر الصبور، ولكن أحدًا منا لم ينطق بكلمة تمس الحادث الذي فرغت الساعة من ذكره، لا صراحة ولا تلميحًا.

كنت أشعر برغبة ملحة في مقابلة «جاك» على انفراد، وكان من عادة امرأتي و«جرترود» والأولاد أن يتركوني معه بعد العشاء نغرق الوقت في الكتب حتى يستوهن الليل.

انتظرت هذه اللحظة في لهفة مشتهاة حتى حانت، ولكني قبل أن أخاطبه شعرت بوجيب أليم في القلب وعواطف شديدة الاضطراب، فلم أدر كيف أجرؤ على فتح باب الحديث في الموضوع الذي كان يقلقني أشد القلق.

وإني لفي حيرتي هذه، إذا هو ينقذني فجأة من مأزق الصمت فيعلن إلي عزمه على تمضية العطلة الصيفية كلها معنا. وكان قبل ذلك ببضعة أيام قد حدثنا عن رحلة إلى جبال الألب العليا يعتزم القيام بها، فلقي مني ومن أمه أحسن القبول وأجمل الموافقة، وكنت أعرف أن

صديقه «ت» الذي اختاره رفيقًا في سياحته، ينتظره مؤمناً بقدومه إليه، فلما أعلن عن عزمه على البقاء معنا، ظهر لي جليًا أن هذا التغيير لا يخلو من صلة وثيقة بالمنظر الذي فاجأته بالكنيسة.

أخذني أول الأمر سخط شديد، ولكني خفت، إن أنا انقدت له، أن يغلق ابني قلبه من دوني ويحكم رتاجه إلى الأبد، تم خشيت أن ينطلق لساني بكلمات جارحة تستوجب الأسف، فبذلت جهدًا عظيمًا حتى استطعت أن أمسك على ما في نفسي، وقلت في صوت حاولت وسعي أن أخرجه طبيعياً:

– كنت أعتقد أن «ت» يعتمد على وفائك بكلمتك.

– أوه! إنه لا يعتمد علي في الرحلة اعتمادا مطلقًا. وهو على كل حال لن يصعب عليه اختيار صديق آخر يحل محلي. إني أجد هنا الراحة التامة كما أجدها في «أوبرلاند» وأعتقد حقًا أني أستطيع استخدام وقتي خيرًا من المرح في الجبال.

– أي أنك وجدت هنا بعد البحث ما يشغلك.

حدق في وجهي، إذ أدرك أن صوتي ينم عن بعض التهكم والسخرية، ولكنه لم يتبين السبب، فعاد يقول في هيئة طلقة:

– إنك تعرف أني أفضل دائمًا الكتاب على المرح في الجبال.

فألقيت عليه بدوري نظرة نافذة، وأجبت:

– نعم يا بني. ولكن ألا تعتقد أن مصاحبتك لدروس الأرغن تفضل القراءة بكثير عندك؟

صعد الدم إلى وجنتيه وأحس به، فوضع يده أمام عينيه كأنما يريد أن يجنبهما ضوء المصباح، ولكنه لم يلبث أن ملك نفسه وقال في صوت كنت أتمنى أن يكون مشوبًا بعض الاضطراب:

– لا تسرف في اتهامي يا أبي. كان في نيتي أن أنفض لك جملة حالي ولا أكتمك شيئًا من بنات صدري، ولكنك سبقت بلحظات قلائل الاعتراف الذي كنت مستعدًا للجهر به.

كان يتكلم في طلاقة وترتيب كما يقرأ الإنسان في كتاب، ويختم جمله في هدوء كأن الأمر لا يمسه من قريب أو من بعيد.

أوغر صدرى ضبط النفس الذي أبداه، وملأه غيظًا وغضبًا، وشعر بأني على وشك أن أقاطعه، فرفع يده كأنما يريد أن يقول: كلا. نستطيع أن تتكلم بعد أن أفرغ من حديثي. ولكني أمسكت بذراعه في هزة قوية وصحت قائلاً وقد أخذتني الحدة:

– أفضل عندي ألا يقع بصري عليك بعد اليوم من أن أراك تدخل الاضطراب على نفس «جرترود» الوادعة النقية!

لست في حاجة إلى اعترافك! إن استغلال العامة والبراءة وسلامة الطوية وصفاء السريرة، لؤم لم أكن أعتقد أنك تنحط إلى دركه طيلة

عمرك. ومع هذا تخاطبني في مثل هذا التبجح وهذه الصفاقة! اصغ إلي جيداً: إن «جرترود» أمانة في عنقي ولن أتحمل بعد اليوم أن تخاطبها أو تمسها أو تراها.

فأجابني في تلك اللهجة الهادئة التي استثارت غضبي:

– ولكن ثق يا أبي كل الثقة بأني أحترم «جرترود» كما تحترمها أنت بلا أدنى فارق. وإنك تلصق بي أفظع تهمة وتوجه إلي أبشع إهانة إذ ظننت أن في سلوكي أو في مضمر قلبي نفسه شيئًا مما يستوجب اللوم. إني أحب «جرترود» وأكن لها احتراما كما قلت يعادل هذا الحب في قوته ونقائه، ومن أجل ذلك أجد مثلك أن إدخال الاضطراب على نفسها واستغلال براءتها وعاهتها أمران ينطويان على الخسة والدناءة.

ثم أحتج بأن كل ما يرغب فيه ويتوق إليه هو أن يكون لها عضدًا وصديقًا وزوجًا، وجهر لي بأنه لم يجد من الأمثل أن يتحدث في هذا الشأن قبل أن يستقر على رأي حاسم، وأن هذا الرأي لم تعرفه الفتاة بعد، لأنه يرغب في الإدلاء إلي به قبل أن يعلنه إليها.

سكت قليلاً ثم أستأنف الحديث:

– بين يديك الآن اعترافي، وثق بأني لا أخفي في صدري شيئا آخر غيره.

لما سمعت هذه الأقوال توزعتني الحيرة والذهول، وكنت طوال

إصغائي إليها أسمع نبض صدغي ودقات قلبي. أعددت اللوم لأسلطه على ابني ولكنه جردني رويداً من كل سبب يبعث السخط في نفسي، فشعرت بالتخاذل لضعف الحجة، حتى أنني في نهاية دفاعه، لم أجد ما أنطق به.

وبعد صمت مرهق طويل، استجمعت فكري وقلت:

– هلم بنا إلى النوم.

ثم نهضت من مكاني ووضعت يدي على كتفه وتابعت الكلام:

– سأنبئك غدًا برأيي في كل ما سمعت.

– أعلن إلي على الأقل أنك لم تعد تشعر بالغضب علي.

– إني في حاجة إلى الليل لاستشارة الفكر والروية.

لما تقابلت مع «جاك» في غداة اليوم التالي، خيل إلي حقًا أني أنظر إليه للمرة الأولى، وبدا لي دفعة واحدة أن أبني لم يعد طفلاً، بل صار رجلًا في ميعة الصبا وشرخ الشباب، وأدركت أني إذا ظللت أعتبره طفلاً، فإن هذا الحب الذي عرفته بغتة يكون في نظري بشعًا دميمًا.

قضيت الليل في إقناع نفسي بأنه طبيعي لا غرابة فيه ولا شذوذ على النقيض مما أجد. ولكن كيف كان يزداد ضيقي بهذا الغرام كلما أمعنت في هذا الإقناع؟ ذلك ما لم أدرك حقيقته إلا بعد مضي زمن قصير.

أردت أن أتحدث إلى «جاك» وأخبره بما أستقر عليه رأيي، وقد همست في أذني غريزة كالضمير لا تخطئ ولا تخدع، ونبهتني إلى ضرورة منع هذا الزواج مهما كلفني الأمر، فأخذته إلى نهاية الحديقة، وبدأت قولي بسؤاله:

– هل أعلنت عواطفك إلى جرترود؟

– كلا. ربما شعرت هي بحبي، ولكني لم أعترف لها بشيء.

– إذن عدني أن تطيل أجل صمتك وكتمانك.

– أبي، لقد عاهدت نفسي على طاعتك، ولكن هل أستطيع أن أعرف ما لديك من الأسباب؟

ترددت في إجابة طلبه، لأني لم أدر هل الأسباب التي سبقت إلى ذهني في تلك اللحظة، هي نفسها الخليقة بالذكر في المقدمة؟ واعترافا بالحق أقول إن صوت الضمير كان أقوى وأوضح من صوت العقل في إملاء هذه الكلمات.

– إن «جرترود» صغيرة السن غضة الإهاب، ولا تنس أنها لم تتناول القربان بعد. تعلم يا بني أنها ليست كغيرها من الأطفال مع الأسف الشديد، وأن نموها قد تأخر كثيرًا، وهي لصفاء دخيلتها كما ترى، تستقبل أقوال الحب الأولى التي تقع على أذنها بحس مرهف، ومن أجل هذا بالدقة ينبغي ألا تسر بها إليها. إن نشر السيطرة على إنسان لا

يستطيع الدفاع عن نفسه هو الجين المجسم، وعهدى به شريفًا تربأ بنفسك عن الجبن والنذالة. تقول إن عواطفك نقية من كل ما يستوجب اللوم، ولكني أقول إنها تشتمل على إجرام لأنها مبكرة سابقة الأوان. إن الحكمة التي لا تزال تعوز «جرترود»، ينبغي أن نهتدي نحن بنورها في سبيل رعايتها. هذه مسألة ضمير فيما أعتقد.

ومن أجمل صفات «جاك» وخصائصه أنه يكفي في إقناعه هذه الكلمات البسيطة: «إني أترك الأمر لضميرك وأرضى بحكمه» التي طالما لجأت إليها في معاملته حينما كان صغيراً.

نقدته خلسة على الرغم منى بنظري السريع، وكان عاري الرأس وشعره المرسل الضارب إلى صفرة الأصيل يلتمع في تموج خفيف فوق صدغيه ويخفي تحته نصف أذنيه، ثم قلت لنفسي: «لو استطاعت «جرترود» أن تراه، لما ترددت في الإعجاب بقده الممشوق ومثاله المرن المستقيم ووجهه النضر الذي لا يزال يحمل سمة الطفولة البريئة، ويتدجى فيه مع هذا ظل مباغت من الجد والخطورة!».

قلت له وأنا أنهض عن المقعد الحجري الذي كنا نجلس عليه:

– شيئا آخر أريد أن أسألك إياه: قلت إنك كنت تنتوي السفر بعد غد.. أرجو ألا تؤجل هذا الموعد. وينبغي أن تظل غائباً شهرًا بأكمله. رجائي منك ألا تختصر من هذه الرحلة يومًا واحداً، أتحقق هذا الرجاء؟

– نعم يا أبي. سأطيع أمرك.

وفي هذه اللحظة رأيت لونه قد أمتقع وأنكفأ حتى كست الصفرة الشديدة شفتيه. ولكني استنتجت من رضوخه السريع أن حبه لا بد أن يكون فاتراً ضعيفًا، واقتنعت بهذا الاستنتاج، فشعرت ببرد راحة يعجز عنها الوصف كرجل ألقي عن ظهره العبء الفادح الذي يؤوده، وعاد خفيف الجسم رافه النفس.

ومع هذا تأثرت بطاعته وخضوعه فقلت له في رقة وعذوبة:

– إني أسترد الطفل الذي أحبه.

ثم جذبته إلي في رفق ووضعت شفتي على جبينه الوضاء، فشعرت منه بتراجع ضئيل يكاد لا ينال بالحس، ولكني لم أشأ أن أتأذى بهذه الحركة أو أدعها تبعث في نفسي الحزن والاكتئاب.

١٠ مارس

كانت دارنا صغيرة تكاد لا تفي بما يعوز أفراد الأسرة من السعة والراحة، وهذا ما كان يضايقني في عملي أحياناً على الرغم من احتفاظي بغرفة ضيقة في الطبقة الأولى كنت أستطيع أن أخلو فيها إلى زائري، ويزداد ضيقي على الأخص حين كنت أرغب في التحدث إلى أحد من خاصتي على انفراد دون أن أحتفل للأسلوب وأحتشد لفن الإلقاء، كما كان يقع في هذه الغرفة التي يسميها الأولاد: المكان المقدس، ولا يلجونها إنفاذا للأمر الذي يحظر عليهم ذلك.

في هذا الصباح نفسه سافر «جاك» إلى «نيوشاتل» ليبتاع ما تتطلبه الرحلة من الأحذية، وكانت السماء مصحية والجو مشرق رضي النسمات، فخرج الأولاد مع «جرترود» بعد الإفطار، يقودونها وتقودهم في وقت واحد (يسرني أن أسجل هنا أن شارلوت كانت بنوع خاص ترعى الفتاة وتحافظ عليها).

هدأ البيت وتهيأت لي أسباب الخلوة إلى «أميلي» في الوقت المعين لشرب الشاي الذي كنا نتناوله دائماً في غرفة الطعام العامة، وكنت أتمنى هذه الخلوة لشدة رغبتي في تبادل الحديث معها. ويندر أن أجد نفسي منفردًا معها دون أن أشعر بنوع من الخجل، وخطورة ما اعتزمت قوله في هذه المرة غمزت على الاضطراب كأني مقبل على نشر اعترافاتي الخاصة، لا على مخاطبتها في شأن اعترافات ولدي «جاك».

وقبل أن أنطق بكلمة، أحسست فضلاً عن هذا إلى أية درجة يمكن أن يشترك مخلوقان في عيشة واحدة ويتحابا، ثم يظل كلاهما لغزًا مستغلقًا على الآخر، وكيف تكون الأقوال، سواء أكانت موجهة منا إلى الغير أو من الغير إلينا، أنة شاكية كأنما هي ضربات مسبار تنبهنا إلى صلابة هذا البرزخ الفاصل وقوة مقاومته، وإلى أننا إذا أغفلنا أمره ولم نلق إليه بالنا، فإنه قد يزداد سمكًا ومتانة.

بينما كانت تصب الشاي، قلت مستهلاً حديثي في صوت مرتعش بقدر ما كان صوت ابني بالأمس هادئًا رزيناً:

- تكلم معي «جاك» أمس مساء وهذا الصباح في شأن حبه لجرترود.

فأجابتني وهي مستمرة في عملها دون أن تنظر إلي، كأنما أعلن إليها شيئًا طبيعياً لا غرابة فيه، أو على الأرجح لا أحمل إليها خبرًا البتة:

- حسنًا فعل.

- أفضى إلي برغبته في الزواج منها. إن عزمه..

فقالت مغمغمه وهي تهز كتفيها في حركة بسيطة:

- كان هذا من السهل إدراكه قبل وقوعه.

قلت وقد تهيجت أعصابي قليلا:

- إذن فهمت أنت شيئًا!

- شيئًا كان يتضح ويكشف عن نفسه رويدًا منذ زمن طويل، ولكنه من الأشياء التي تفلت من ملاحظة الرجال وتلتوي عليها.

- كان من الواجب عليك في هذه الحالة أن تلفتي نظري. وتسترعي إنتباهي.

فبدت على ركن من شفتيها المتقلصة قليلًا بسمة فاترة، تلازم في بعض الأحيان كتمان ذات نفسها وتحميه من الافتتاح، ثم هنت رأسها في انحراف وقالت:

– أفرض علي أن أنبهك إلى كل ما لا تلاحظه أو تلقي بالك إليه؟!

ما دلالة هذا التلميح وما مغزاه؟ هذا مالم أعرفه وما لم أشأ أن أحاول الوقوف عليه، فضربت صفحًا عنه وقلت:

– الخلاصة أني أريد أن أسمع لرأيك في المسألة التي جئتك بخبرها.

فتنهدت وقالت:

– تعرف يا صديقي أني لم أوافق قط على وجود هذه الفتاة بيننا.

كدت أغضب حين رأيتها تعود إلى الماضي على هذه الصورة، ولكني تمالكت نفسي في عناء ومشقة، وقلت:

– وجود «جرترود» ليس موضوع حديثنا..

فقاطعتني بقولها:

لقد كان رأيي دائمًا أن إقامتها معنا لا تنتج خيراً.

وهنا ملكتني الرغبة في استرضائها فاقتنصت جملتها الأخيرة واتخذتها وسيلة إلى استدراجها:

– إذن تعتبرين زواجًا مثل هذا شراً.. ثقي بأن هذا القول هو ما كنت أروم سماعه منك، ويسرني جد السرور أن نستقر على رأي واحد. وفضلاً عن ذلك فإن «جاك» أقتنع بالحجج التي شرحتها له وقابلها

بالرضا والطاعة، واتفقت معه على أن يسافر غدًا للقيام برحلته التي ينبغي أن تستغرق شهرًا كاملاً، فإطمئني بالًا من هذه الناحية.

سكت قليلاً ثم قلت:

– دفعني اهتمامي مثلك بأن لا يجد «جرترود» هنا عند عودته إلى أن أفكر في الأمر، فوجدت من الأصوب أن أستودعها الآنسة «دى لا. م» حتى أستطيع الاستمرار في رؤيتها، إذ لا أخفي أني فرضت على نفسي واجبات حقيقية نحوها لا مناص من القيام بها. وكثيرًا ما شعر قلبي بأن الآنسة تود من حبة القلب أن تسدي إلينا جميلاً، فهي ستعني «بجرترود» وسيغمرها السرور حين تعرف هذه الفكرة كما يدل على ذلك ابتهاجها بإعطائها دروسًا في الموسيقى، وأعتقد أن هذه الطريقة ستريحك من إقامة تثقل عليك.

لم تتكلم «أميلي» لأنها فيما يظهر أصرت على الاحتفاظ بالصمت، فعدت إلى الحديث:

– وهذه الحالة تحتم علينا أن نعمل ما في وسعنا حتى لا يرى «جاك» الفتاة في محل إقامتها الجديد بغير علمنا، ومن أجل هذا أعتقد أن من الأمثل شرح الموقف للآنسة «دى لا. م» ألا تقرين رأيي؟

حاولت بهذا السؤال أن أحصل على كلمة من «أميلي» ولكنها ظلت مضمومة الشفتين كأنما أقسمت ألا تقول شيئًا، فواصلت قولي، لا لأن لدي شيئًا آخر أضيفه إلى ما سبق، ولكن لأنقذ نفسي من صمتها الذي لم أستطع صبرًا على احتماله:

– وعلى كل حال فإن «جاك» ربما يعود من رحلته مستفيقًا بارئًا من حبه. أيعرف الإنسان مجرد رغباته في مثل سنه هذه؟!

فأجابتني بلهجة غريبة:

– أوه! وحتى بعد هذه السن لا يعرفها الإنسان دائماً.

أغضبتني لهجتها المستبهمة ذات الحكم اللاذع، لأني بطبعي وتكويني كلف بالصراحة، فلا يلائمني الغموض بسهولة. وبعد لحظات ألتفت إليها ورجوت منها أن توضح ما ترمي إليه بكلماتها، فقالت في نغمة الحزن:

– لا شيء يا صديقي. فكرت فقط أنك كنت منذ هنيهة تتمنى أن أنبهك إلى كل ما يفلت من ملاحظتك.

– وإذن؟

– وإذن قلت لنفسي إن التنبيه ليس من الهين اليسير.

ذكرت أني كنت أستنكر الغموض، وحرصًا على هذا المبدأ، أبيت السكوت على المعاني المستترة خلف الألفاظ، فقلت في قليل من الحدة والخشونة كما أظن:

– حين تريدين أن أفهم قولك ينبغي أن تفصحي أكثر من هذا.

ولكنى أسفت للهجتي في الحال، إذ رأيت شفتيها ترتجفان بعض لحظات. ولم تلبث أن أشاحت بوجهها وأزورت عني معرضة، ثم نهضت

وسارت في الغرفة بضع خطوات في تردد وتخاذل كأنها مفككة المفاصل منسرقه القوى.

وخشيت أن تخرج فصحت سائلًا:

– خبريني يا «أميلي»، لماذا يلازمك الاكتئاب الآن، وقد دبر الأمر وليس فيه على سوئه ما يخشى عواقبه؟!

شعرت في هذا الوقت بأن التفاتي إليها يضايقها، فأدرت ظهري واتخذت من المنضدة متكأ لمرفقي ومن راحتي موئلاً لخدي، ثم قلت:

– لقد خاطبتك منذ لحظات في عنف وغلظة، فأنشري علي جناح عفوك.

وحينئذ عرفت من وقع قدميها أنها تدنو مني، وشعرت بأصابعها توضع على جبيني وهي تقول في صوت رقيق تخنقه للعبرات:

– صديقي المسكين!

ثم غادرت الغرفة على الفور.

وأثبت في هذا المقام أن كلماتها التي بدت لي في حينها ملفقة ومستغلقه، كشفت لإدراكي عن مغزاها ومرماها بعد زمن قصير. ولقد دونتها كما ظهرت لي أول الأمر، وفي هذا اليوم فهمت فقط أن الوقت قد حان لنقل «جرترود» إلى مكان آخر.

١٢ مارس

فرضت على نفسي واجبًا هو أن أخصص كل يوم جزءًا من الوقت «لجرترود» يختلف قصرًا وطولاً باختلاف الأعمال اليومية التي يتحتم علي إنجازها. وفي غدوة اليوم التالي لحديثي مع «أميلي» وجدت لدي فسحة من الوقت، وكان الجو مغرياً بصفائه ورقة شمائله، فخرجت مع الفتاة نسير في مستدقات الغابة تحت قباب مخرمة من الأغصان حتى بلغنا غضون جبال (جورا) حيث يسيطر البصر على بقاع من الريف مترامية الأطراف ويمتد من تحت ضباب رقيق شف إلى جبال الألب البيضاء التي تبعث في النفس دهشة الجمال والفتنة.

لما وصلنا إلى المكان الذي ألفنا الجلوس فيه، كانت الشمس قد مالت إلى الناحية التي عن شمالنا. وكان يمتد تحت أقدامنا على مسافة طويلة، مرعى ضعيف الكلأ في بعض نواحيه كثيفه في البعض الآخر، يرعى فيه على البعد قطيع من البقر، تحمل كل بقرة منه، جريًا على عادة القطعان في الجبال، جرسًا صغيرًا في العنق. ولما أستقر بنا المقام وبلغ رنين الأجراس سمع «جرترود» قالت وهي تصغى إليه:

– إنها ترسم البقعة والمنظر الذي تراه.

ثم سألتني كدأبها حين نخرج للتريض في كل مرة، أن أصف لها المكان الذي اخترناه لجلوسنا، فقلت:

– ولكنك تعرفينه قبل اليوم. إننا في طرف الغابة حيث ترى منه جبال الألب.

– وهل تتضح اليوم للنظر؟

– يستطيع الإنسان أن يراها في أجلى رونق وبهاء.

– قلت لي ذات مرة إنها كل يوم هي في شكل..

– بماذا أقارنها اليوم؟ بظمأ في يوم صيف قائظ. قبل ورود الماء سيكون قد كمل انحلالها وذوبانها في الهواء.

– أريد أن تخبرني هل في المرعى المترامي أمامنا زهرات من الزنبق؟

– كلا يا «جرترود» إن زهرات الزنبق لا تنبت في مثل هذه الأمكنة العالية وربما لا ينمو فيها إلا أنواع منها نادرة.

– ألا ينبت فيها ما يسمى بزنبق الحقول؟

– ليس في الحقول زنبق.

– حتى الحقول التي في رياض «نيوشاتل» تخلو منها؟

– لا وجود لأزهار بهذا الإسم.

– إذن لماذا يقول لنا السيد المسيح «أنظروا إلى زنابق الحقول»؟

– لم يذكرها إلا لأنها كانت معروفة في عصره دون ريب، ولكن

افتنان الناس في الزراعة واستنباط أنواع النبات، قضى على هذا النوع من الأزهار.

– أتذكر أنك قلت لي مرارًا إن أعظم ما يفتقر إليه هذا العالم الأرضي هو الثقة والمحبة. ألا تظن أن الإنسان بثقة تزيد قليلًا على ما عنده، يعود ثانية إلى رؤية زنابق الحقول؟ إني حين أصغي إلى هذا القول، أؤكد لك أني أراها. سأصفها لك، إذا شئت –كأني بها أجراس من لهب وشهب، أجراس كبيرة من زرقة السماء مملوءة بعطر المحبة يموج بعضها في بعض كلما داعبها نسيم المساء. لماذا تخفي عني أنها كائنة هنا لك أمامنا؟ أني أشعر بها! أرى المرعى زاخرًا بها!

– إن هذه الزهرات ليست أكثر جمالًا مما ترينها يا عزيزتي «جرترود».

– قل إنها ليست أقل جمالا.

– إنها جميلة كما ترينها.

– «وأقول لك في الحق إن سليمان نفسه، في إبان مجده وعظمته، لم يبلغ في كسوته مبلغ أية واحدة منها».

هذه نبذة من أقوال المسيح اقتبستها «جرترود» وقالتها في صوت عذب منغم، فخيل إلي وأنا أصغي إليها أني أسمع هذه الكلمات للمرة الأولى.

وكررت هذه الجملة «في إبان مجده وعظمته» بلهجة الذاهل السابح في التأمل ثم ظلت بعض الوقت صامتة، فعدت إلى الحديث:

– قلت لك يا «جرترود». إن من لهم في رؤوسهم أعين، هم الذين لا يعرفون أن يروا ويبصروا.

وفي هذه اللحظة سمعت في أغوار قلبي لهذه الصلاة «لك الحمد يا رب على أنك تطلع المساكين المحدودين على ما تخفيه عن الأذكياء المجدودين». وعلى حين بغتة صاحت الفتاة قائلة في حماسة وبشر:

– آه! لو تعلم كيف أتصور في سهولة كل هذا! أيعوزك الدليل؟ أتريد أن أصف لك المكان؟ .. تقوم من خلفنا ومن حولنا وفوق مستوى رؤوسنا أشجار التنوب الهائلة ذات الطعم المائل إلى الصنوبر، والسوق الضاربة إلى حمرة الرمان، والأغصان الطويلة الأفقية السمراء التي تئن كلما هب عليها الهواء وثناها. وينبسط أمامنا، ككتاب مفتوح محني على مقرأ الجبل، المرعي الفسيح المخضوضر الملون، الذي تكسبه الظلال زرقة حين تخيم والشمس صفرة حين تبرز، وكلمات هذا الكتاب الجلية البارزة هي أزهار –من كف الذئب وشقائق النعمان وكف السبع وزنابق سليمان البديعة –تأتى الأبقار لتتهجى حروفه بأجراسها وتهبط الملائك لتقرأ فيه، ما دامت عيون الناس مغلقة كما تقول. وفي نهاية الكتاب أرى نهرًا كبيرًا كأنه من لبن تكسوه غلالة رقيقة من البخار والضباب، يغطي هوة هائلة من الأسرار الغامضة، وليس له من شاطئ آخر غير جبال

الألب الفتانة هنالك على بعد شاسع من مكاننا.. وإلى تلك المرتفعات الشاهقة سيذهب «جاك». قل: هل سيسافر غدًا حقًا؟

– أستقر الرأي على أن يسافر غداً. هل أخبرك بذلك؟

– كلا. ولكنى فهمت من تلقاء نفسي. هل سيتغيب وقتًا طويلًا؟

– شهرًا.. «جرترود» أريد أن أسألك.. لماذا لم تقصي على أنه أجتمع بك في الكنيسة؟

– جاءني في البيعة وقابلتي مرتين. أوه! إني لا أريد أن أخفي عنك شيئاً، ولكني خشيت أن أسبب لك ألماً.

– لقد ولده في نفسي كتمانك.

تحسست بيدها يدي وقالت:

– كان يحزنه السفر.

– خبريني يا «جرترود».. هل أسر إليك أنه يحبك؟

– كلا، ولكني أشعر جد الشعور بهذا من غير حاجة إلى الجهر به.. إن حبه لي لا يداني حبك.

– وأنت يا «جرترود» أيؤلمك رحيله؟

– من الأصوب أن يسافر، هذا رأيي. إني لا أستطيع أن أجيبه على عواطفه.

– ولكن أفصحي: أيؤلمك سفره؟

– تعرف جيدًا أنه أنت الذي أحب يا سيدي الراعي.. أوه! لماذا تسحب يدك؟ لم أخاطبك على هذه الصورة إلا لأنك متزوج. وفضلًا عن هذا فإن الإنسان لا يبني بفتاة ضريرة، وإذن ما الذي يحول دون أن نتحاب؟ تكلم يا سيدي الراعي وقل هل تجد هذا الحب خطيئة وشراً؟

– الشر لا يكون في الحب أبداً.

– لا أشعر بغير الخير في قلبي. لا أريد أن يألم «جاك» من أجلي.. أريد أن أجنب الجميع الألم.. لشد ما أرجو ألا تهب من ناحيتي إلا ريح الصفاء والسعادة!

– «جاك» يفكر في طلب يدك.

– أتأذن لي في محادثته قبل سفره؟ أرجو أن أفهمه ضرورة نزوله عن حبي. سيدي الراعي، أظنك تدرك أني لا أستطيع الزواج من أحد. أتراني على حق؟ ستسمح لي أن أتحدث إليه، أليس كذلك؟

– لك ما تريدين في هذا المساء.

– كلا. غدا في لحظة السفر نفسها..

– تضيفت الشمس إلى المغيب في روعة أخاذة، وكان الهواء رخياً هادئاً، فنهضنا وأخذنا، ونحن نتبادل الحديث، طريق العودة وقد خيم عليه غبش المساء.

الكراسة الثانية

٢٥ أبريل

اضطررت إلى ترك هذه الكراسة بعض الوقت.

تصدع الثلج وذاب، وما كادت الطرق تعود صالحة للمسير، حتى رأيت من الواجب علي أن أقوم بإنجاز عدد كبير من الالتزامات، كنت مرغمًا على إرجائها طوال الزمن الذي بقيت فيه قريتنا محاصرة بالثلوج. وبالأمس فقط استطعت أن أجد من الفراغ بعض لحظات.

وفي البارحة أعدت قراءة كل ما دونته هنا..

واليوم وقد آن لي أن أجرؤ على تسمية العاطفة التي ظل قلبي لا يعترف بها وقتًا طويلاً، باسمها، أكاد لا أفسر لنفسي كيف استطعت إلى الآن أن أخطئ في إدراكها، وكيف جاز أن تظهر لي بعض أقوال «أميلي» التي دونتها فيما سبق غامضة مستبهمة، وكيف تيسر لي بعد قول «جرترود» الساذج وصراحتها الجلية أن أشك في حبي لها ولا أتبين حقيقته! ذلك أني كنت حينذاك لا أقر مطلقًا حبًا حلالاً خارجًا عن دائرة الزواج من ناحية، ولا أوافق على الاعتراف بأي شيء محرم في العاطفة التي تجذبني نحو «جرترود» بقوة وإلحاح شديدين من ناحية أخرى.

سذاجة اعترافاتها وصراحتها نفسها أدخلت على نفسي الثقة

والطمأنينة، فكنت أقول في دخيلتي: إنها طفلة. والحب الحقيقي لا بد أن ينتج الاضطراب والتبلبل ويسبغ على الوجه حمرة الخجل.

وقد أقنعت نفسي بأني أحبها كما يحب الإنسان طفلاً عاجزاً، وكنت أعني بها كما يعني الإنسان بمريض – وبمرور الزمن أحلت هذا العطف المستمر إلى التزام خلقي ثم إلى واجب.

نعم لقد شعرت حقًا في ذلك المساء نفسه الذي تحدثت إلي فيه كما ذكرت في حينه، بأن نفسي كانت رافهة طلقة فرحة إلى درجة عظيمة، ولكني أخطأت فهمها وجهلت حقيقة أمرها. وظللت في الخطأ والجهل وأنا أسطر ما دار بيننا من الأحاديث. ولكوني كنت أعتقد أن الحب شيء يستوجب اللوم، وأرى أن كل ما يستوجب اللوم يثقل على النفس، ولم أشعر قط أن نفسي مثقلة محنية، فإني لم أعتقد بأن الحب يجري خلال عواطفي.

وأراني سجلت هذه الأحاديث، لا كما وقعت وحسب، بل سطرتها أيضًا في هذا الاستعداد الفكري الذي ذكرته. وأقول في صدق وإخلاص إني لم أفهم وأدرك حق الإدراك إلا حين أعدت قراءتها هذه الليلة.

أذنت «لجرترود» في تبادل الحديث مع «جاك» إنفاذاً لوعدي، وعقب سفره مباشرة، استردت حياتنا مجراها البالغ في الهدوء. وهو لم يرجع من رحلته إلا في الأيام الأخيرة من العطلة، وكان يتكلف اجتناب مقابلتها تارة، ويتصنع العزم على ألا يكلمها إلا تحت سمعي وبصري تارة أخرى.

انتقلت الفتاة كما اتفقنا إلى الإقامة في بيت الآنسة «لويز» حيث كنت أراها كل يوم. ولكني تعمدت ألا أتحدث إليها في شيء ينتج عنه الانفعال والتأثر، إذ كنت لا أزال أخاف الحب وأرهب جانبه. ولم أعد أخاطبها إلا في لغة الراعي ولهجته وفي أغلب الأحيان في حضرة «لويز»، موجهًا اهتمامي على الأخص إلى تعليمها الديني لأعدها إعدادًا كافيًا «لتناول القربان» في عيد القيامة. ولما جاء يوم العيد تناولت القربان أنا أيضًا.

كان ذلك منذ خمسة عشر يوماً. وما بعث الدهش في نفسي أن «جاك» وقد آب من سفره ليقضي معنا أسبوعًا من العطلة، لم يصحبني إلى «المائدة المقدسة» ويدعوني إلى الأسف اضطراري إلى القول إن «أميلي» تغيبت مثله للمرة الأولى من يوم زواجنا إلى الآن. وغالب الظن أنهما تعاهدا على ذلك وأزمعا بتغافلهما هذا الموعد الحافل أن يلقيا على إبتهاجي ظلالًا قائمة. وفي هذه الحالة أيضًا هنأت نفسي بأن «جرترود» لم تستطع أن ترى ما وقع، وبأني قاسيت وحدي ثقل هذه الظلال.

كنت أعرف امرأتي معرفة وثوق وخبرة، ومن أجل ذلك أدرك تمام الإدراك كل تأنيب مستتر توجهه إلي عن طريق سلوكها وهي لم تقدم قط على استهجان أعمالي في صراحة وعلانية، ولكنها تلجأ إلى إظهار استنكارها بالركون إلى ضرب من الإعراض والعزلة.

ولقد همي على قلبي سيل الحزن العميق من أن شكاية من هذا

النوع – أريد أن أقول: كما أكره أن أعتبرها – استطاعت أن تثني نفس «أميلي» حتى تصرفها عما كانت تعده أسمى الواجبات. ولما عدت إلى البيت، صليت من أجلها بقلب ملؤه الصفاء والإخلاص. أما تغيب «جاك» فكان يرجع إلى أسباب أخرى كشف لي عنها حديث جرى بيننا بعد ذلك بأيام قلائل.

٣ مايو

دفعني تعليم «جرترود» الديني إلى أن أعيد قراءة الإنجيل بعين جديدة، وكنت أتبين كلما أمعنت في الاطلاع أن عددًا كبيراً من الأفكار والتصورات الذهنية التي تتكون منها عقيدتنا المسيحية، ناشئ عن تفسيرات القديس بولص، وليس عن أقوال المسيح.

كان هذا بالذات موضوع المناقشة التي جرت أخيراً بيني وبين «جاك»، وقد أصبح من المتعصبين للتقليدات والمعتقدات الدينية المأثورة، لأن مزاجه الذي يشوبه بعض الجفاف، لم يدع قلبه يمد ذهنه بالغذاء الكافي. وهو من أجل هذا يأخذ على أني أختار من المذهب المسيحي «ما يحلو لي ويستدر إعجابي» ولكني في الحق لا أختار قولًا بعينه من أقوال المسيح، وأما إذا خيرت بينه وبين القديس بولص، وقع اختياري عليه. وابني مخافة أن يحمل أحدهما معارضًا للآخر، يرفض التفرقة بينهما، ويأبى أن يشعر بالانتقال من أحدهما إلى الآخر بتباين في الإلهام، ويحتج إن قلت إني أسمع الرجل في قول القديس بينما أستمع

إلى الله في قول المسيح. وكلما أسترسل في تعقله وإبداء حججه، ازددت اقتناعا بهذه الفكرة: إنه لا يتأثر مطلقاً باللهجة الإلهية الخالصة التي تلازم كل كلمة من أقوال المسيح.

إني أبحث خلال الإنجيل عن وصايا ووعيد ودفاع فلا أظفر بطائل..كل هذا من عند القديس بولص وحده، وعدم وروده أصلاً في أقوال المسيح، هو على وجه الدقة ما يضايق «جاك» والنفوس المماثلة لنفسه لا تكاد تفقد الحس بأن إلى جانبها أوصياء وصفا من المصابيح، وحواجز واقية، حتى تعتقد أنها ضلت وصارت إلى التهلكة. وفضلًا عن هذا فإنها تنظر بعين الاستياء والضيق إلى حرية يستمتع بها غيرها، وتنزل هي عنها، وتتمنى أن تحصل غصبًا على كل ما يبدو الاستعداد الكريم لمنحها إياه بدافع الإيمان والمحبة.

قال لي «جاك»:

– ولكني يا أبي أتمنى أنا أيضًا سعادة الأنفس.

– كلا يا عزيزي. إنك تتمنى خضوعها.

– إنه في الخضوع تكون السعادة.

تركت له الكلمة الأخيرة ولم أجبه، لأني لا أحب الجدال، ولكني أعلم جد العلم أن الإنسان يفسد السعادة ويعرضها للخطر إذا ما حاول أن يحصل عليها بما ينبغي، على النقيض مما يظن، أن يكون نتيجة لها

فقط، وعلى فرض صحة الفكرة القائلة بأن النفس المحبة تنعم في خضوعها وتغتبط، فإنه لا شيء يبعد الإنسان عن السعادة أكثر من خضوع بغير محبة.

والحاصل أن «جاك» فطن جيد التعقل، وإذا كنت أتألم من أن أجد في عقل ناشئ كهذا كثيراً من الصلاة الذهبية وهو ما يزال شابًا، فإني مع هذا أعجب غاية الإعجاب دون ريب بقيمة حججه وثبات منطقه وجلده. ويبدو لي في كثير من الأحيان أني أصغر منه سناً، بل أصغر منه اليوم عما كنت بالأمس، فأكرر هذا القول: «إن لم تعودوا كأطفال صغار، فلن تدخلوا ملكوت السموات».

أخيانة مني للمسيح، وتصغير للإنجيل وتدنيس لحرمته، أن أرى فيه على وجه الخصوص «طريقة منظمة للوصول إلى حياة السعداء الأبرار»؟ إن حالة الرضا والفرح يحول دونها شكنا وقسوة قلوبنا وصلابتها، مع أنها حالة إجبارية للمسيحي، فكل فرد جدير بقسط يناسبه من البشر والفرح، وكل قرد يجب عليه أن يطمع فيه ويطمح إليه. إن بسمة «جرترود» وحدها علمتني في هذا الشأن أكثر ما أفادت هي من جميع دروسي التي ألقيها عليها.

وقد برز أمام عيني قول المسيح هذا وضاء ساطعًا «لو كنتم عميا، لما كان لكم خطايا مطلقا». إن الخطيئة هي ما يعكر صفاء النفس ويضرب عليها الظلمة، هي ما يعترض فرحها ويطارده، ولهذا تنشأ سعادة

«جرترود» الكاملة المشرقة من جميع أجزائها النضرة، عن جهلها التام بالخطيئة، فليس فيها إلا نور ومحبة.

وضعت بين يديها اليقظتين الأناجيل الأربعة والمزامير ورؤيا القديس يوحنا ورسالاته الثلاث حيث تستطيع أن تقرأ هذه الجملة «الله نور وليس فيه أي أثر للظلمات» كما تهيأ لها أن تقرأ من قبل في إنجيلها هذه الكلمات «إني نور السموات والأرض، فن تبعني فلن يمشي في الظلام» ورأيت أن أضن عليها برسائل بولص الرسول، إذ ما دامت تجهل الخطيئة الجهل كله لأنها ضريرة، فكيف يجوز أن أزعجها بأن أدعها تقرأ هذه العبارة «اكتسبت الخطيئة قوة جديدة بالوصية». (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية الإصحاح السابع آية ١٣) والمنطق الذي يليها مهما يكن رائعًا خلاباً؟

٨ مايو

حضر الطبيب «مارتان» بالأمس من (شودى فون) لزيارتي وأختبر طويلاً عيني «جرترود» بالمجهر الخاص بالرمد، وأخبرني أنه تكلم في شأنها مع الطبيب الإخصائي «رو» المقيم بلوزان، وأنه سيدلي إليه بملاحظاته لا محالة، والرأي عندهما أن الأمل كبير في رد البصر إلى الفتاة بعملية جراحية، ولكننا اتفقنا على أن نخفي عنها هذا الموضوع حتى يجتمع لدينا بعد البحث أسباب الثقة بالنجاح، إذ ما الفائدة من إيقاظ أمل في نفس «جرترود» قد نضطر إلى القضاء عليه قبل أن

يستفيق؟ ثم ألم تكن سعيدة في حالتها هذه؟ ..

وقبل أن يذهب «مارتان» إلى نيته، طلبت منه أن يعود إلي بما يستقر عليه رأي زميله.

١٠ مايو

أجتمع «جاك» «بجرترود» في حضرتي يوم عيد القيامة – على الأقل رأى إبني الفتاة ثانية وتحدث إليها، ولكن في أشياء تافهة لا قيمة لها ولا خطر. وقد أظهر أنه أقل إنفعالًا وتأثرًا مما كنت أظن وأخشى، فدلني ذلك مرة أخرى على أن حبه لو كان مضطرما حقًا، لما أستطاع أن يخمده في مثل هذه السهولة، مهما تكن «جرترود» قد أعلنت إليه قبل سفره في العام الماضي أن هذا الحب ينبغي أن يظل بلا أمل. ولاحظت أنه على غير عادته التي ألفها في الماضي، يخاطب الفتاة بالتعظيم، وذلك ما كنت أفضله من غير شك. ومع ذلك لم أسأله السبب، لأني قنعت بالغبطة التي شعرت بها واستخفتني حين رأيته يدرك هذا من ذات نفسه.. إن قلبه يشتمل على كثير من الخير بلا نزاع.

وبرغم ما ذكرت، فإني أظن خضوع «جاك» لم يتحقق إلا بعد عناء ونضال. ومن الشاق الكدر أن الضغط الذي رأى من الواجب أن يفرضه على قلبه، يبدو له الآن خيرًا في ذاته، ويود لو يراه مفروضًا على الناس جميعًا. وقد أحسست برغبته هذه في المناقشة التي جرت بيننا وذكرتها فيما سبق. ألم يقل «لاروشفوكو» إن العقل في أغلب الأحيان خدعة القلب؟

ومما لا يحتاج إلى إيضاح أني لم أجرؤ على لفت «جاك» إلى هذه الحكمة أثناء المناقشة، لأني أعرف مزاجه وأعتقد أنه من الذين لا يزدهم الجدال إلا عنادًا وإصرارًا على رأيهم، ولكني في المساء نفسه، وجدت، وفي أقوال القديس بولص على وجه التحقيق، ما أجيبه به (لم أستطع مصاولته إلا بأسلحته) فوضعت في غرفته خلسة ورقة صغيرة تحمل هذه الآية «لا يدن من لا يأكل من يأكل لأن الله قبله» (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح ١٤ آية ٢)).

كنت أستطيع أيضًا أن أسطر هذه الآية تكملة للسابقة «إني عالم ومتيقن في يسوع أن ليس شيء نجسًا بذاته إلا من يحسب شيئاً نجسًا فله هو نجس» (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح ١٤ آية ١٤) ولكني أحجمت خشية أن يفترض في ذهني من ناحية «جرترود» تأويلا شائنًا معيبًا، لا يصح مجرد مروره بباله. ومن الواضح البين أن هذه الآية تتكلم عن الأغذية، ولكن أليست ككثير غيرها من آيات الكتاب المقدس تلهم الناس معنيين أو ثلاثة، مثل («إذا كانت عينك» .. ومعجزة عرس قانا الجليل إذ أحال المسيح الماء إلى خمر، ومعجزة أرغفة الشعير الخمسة التي أشبعت نحو خمسة آلاف رجل كما ورد في الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا، إلخ..).

وليس الأمر هنا، أمر جدال، فإن معنى هذه الآية وسيع عميق، والتقييد ينبغي ألا يمليه القانون، بل تقضي به المحبة، ومن أجل هذا،

قيدها القديس بولص بقوله «فإن كان أخوك بسبب طعامك يحزن فلست تسلك بعد حسب المحبة» (إصحاح ١٤ آية ١٥) حقًا إن الشيطان يهاجمنا ويغزونا لخلونا من المحبة. رب طهر قلبي من كل ما عداها.. ما كان أشد خطئي في استثارة ابني واستفزازه! في اليوم التالي وجدت على مكتبي الورقة نفسها التي نقلت فيها الآية وقد كتب «جاك» على ظهرها: «لا تهلك بطعامك ذلك الذي مات المسيح لأجله» (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح ١٤ بقية الآية ١٥).

أعدت قراءة الإصحاح مرة أخرى فوجدته يفتح باب مناقشة لا تقف عند حد، فهل أعذب بضروب القلق نفس «جرترود» وأنشر الغمام الجون على سمائها المشرقة بأسطع الأضواء؟ – ألا أزداد قرباً من المسيح وأزيدها معي دنوًا منه حين أعلمها وألقي في إعتقادها أن الخطيئة الوحيدة هي الإعتداء على هدوء الغير وسعادته أو إفساد سعادتنا الخاصة وتعريضها للخطر؟

إن بعض النفوس مع الأسف الشديد تظل معرضة عن السعادة بطبعها عصية عليها إلى درجة عجيبة، فيها خرق وغباء وافتقار إلى القابلية والاستعداد.. إني أفكر في إمرأتي «أميلي» المسكينة، لأني أدعوها إلى السعادة وأدفعها دفعًا إليها وأكاد أرغمها على أن تهنأ وتسعد. نعم بودي لو أنهض كل فرد وأدنيه من الله. ولكنها تستخفى علي وتفلت من رغبتي وتنطوي على نفسها بغير انقطاع كبعض الأزهار

التي لا تنفع في تفتحها أشعة الشمس، وكل ما يقع عليه بصرها يقلق بالها ويحزن نفسها.

أجابتني ذات يوم:

– ماذا تريد يا عزيزي، لم يتيسر لي أن أكون ضريرة.

آه! ما أقسى سخريتها هذه، وما كان أشد حاجتي إلى بذل الجهد لأجنب نفسي الاضطراب! ومع هذا كان عليها أن تفهم، فيما أرى، أن تلميحها إلى عاهة «جرترود» من شأنه أن يجرح شعوري جرحًا أليمًا. وقد جعلتني بقولها أحس أن ما يستدر إعجابي من الفتاة بنوع خاص هو حلمها ووداعتها الوفيرة. وفي الحق إني لم أسمعها قط تحمل على أحد من الناس أو تأخذ عليه ما يستوجب التململ والشكاية، ومن الطبيعي أني أحرص على أن تجهل كل ما يمكن أن يؤلمها ويؤذي شعورها.

وكما أن النفس المبتهجة بإشراق المحبة فيها تنشر السعادة من حولها، كذلك كان محيط «أميلي» مستوحشًا قاتمًا. ويذكرني هذا «بأمييل» الذي لو أراد أن يصف نفسه لقال إنها نسيج من أشعة سوداء!

حين كنت أعود بعد نهار أقضيه في جهاد الوعظ والإرشاد وزيارة المرضى والمعوزين والرازحين تحت أعباء النوازل والملمات، وأدخل البيت والليل يرخي سدوله متساقطًا من الإعياء والكلال في بعض الأحيان، والقلب في أشد الحاجة إلى الراحة والعطف والحرارة، كنت لا أجد في غالب الأوقات إلا ألواناً من التبكيت والمشادة، فيحملني هذا

على تفضيل الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة خارج المنزل.

أعرف جيدًا أن خادمتنا العجوز «روزالي» لا تنفذ أبدًا إلا رأيها، وهي ليست على خطأ في كل مرة، كما أن «أميلي» ليست دائمًا على صواب حين تحاول أن تخضعها لرأيها. وأعلم جد العلم أن «شارلوت» و«جاسبار» يكثران من الهياج في البيت، ولكن أما كان يتيسر لإمرأتي أن تحصل على نتيجة مرضية لو خفضت قليلًا من الصراخ الذي تتبعهم به في كل حين؟ إن الإغراق في النهي واللوم والتعنيف يفقدها الأثر المرجو منها، كما يكسر تعاقب المد على شواطىء البحار من حدة الحصى الذي يكسوها. ومن أجل هذا كان أولادي لا يبالون بها ولا يأبهون لها إلا قليلاً على النقيض مني.

أعرف أن «كلود» الصغير يعاني ألم الأسنان الناشئة (هذا على الأقل ما كانت أمه تعلل به عويله كلما شرع فيه). ولكن أليس يغريه بالإمعان في الصراخ أن تهرع إليه في الحال، هي أو أخته «سارة»، وتدلله في افتنان واستمرار؟ إني أعتقد في إصرار بأنه كان يقلل كثيراً من عويله لو ترك جملة مرات متعاقبة يفرغ كل ما عنده منه أثناء غيبتي. ولكنهما مع الأسف لا تعملان إلا على العكس مما أشتهي ولا تدللانه إلا حين أكون خارج المنزل حتى إذا عدت أطلق ما أمسك عليه من الصراخ والعويل.

وتشبه «سارة» أمها جد المشابهة، وهذا ما جعلني أود لو أستودعها مدرسة داخلية، وهي لا تشبه أمها كما كانت هذه في سنها

حين كنا خطيبين، ولكن كما حورتها هموم الحياة المادية، أو على الراجح كما صيرتها زراعة هذه الهموم (إذ أن أميلي تزرعها حقًا وتتعهدها بالري والعناية). وليس من شك في أني أكاد أنكر اليوم الملاك التي كان يبتسم في الزمن الماضي لكل توثب نبيل يصدر عن قلبي، والذي كنت أحلم بوحي الغريزة أن يشاركني في حياتي، وكان يخيل إلي أنه يقودني ويسبقني نحو النور –أكان هذا حقيقة، أم أن الحب في ذلك العهد كان يضلني ويخدعني؟ .. ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إني لم أر من «سارة» اهتماما إلا بكل تافه مبتذل، ولا إستسلامًا إلا للهموم الضئيلة الحقيرة على منوال أمها.

وكانت قسمات وجهها نفسه، تحمل سمة العبوس والإكتئاب وتتلفع بما يشبه الغلظة والخشونة. وليس لها أقل ميل إلى الشعر أو رغبة مذكورة في القراءة، ولم أباغت قط بينها وبين أمها محادثة تستهويني فأتشهى الإشتراك فيها، وحين أكون معها أحس بوحدة أثقل على نفسي وآلم لها مما تكون طيلة إنزوائي في مكتبي، وهذا ما لجأت إليه وأمعنت في إطالته يومًا بعد يوم حتى صار عادة مألوفة عندي.

ولما ورد الخريف، اعتدت أيضًا على الذهاب إلى بيت الآنسة «دى لا. م» لتناول الشاي حيث أوثر قضاء الفراغ، كلما سمحت أعمالي وزياراتي، أي كلما إستطعت العودة مبكرًا. وقد شجعني على ذلك قصر النهار وسرعة إنقضاض الليل.

لم أقل بعد إن الآنسة «لويز» أضافت مع «جرترود» ثلاث فتيات فاقدات البصر نزولاً على رأي الطبيب «مارتان». وفرضت «جرترود» على نفسها بدورها أن تعلمهن القراءة وبعض أعمال منزلية مختلفة هينة، فلم يلبثن أن أظهرن إتقانًا ومهارة.

أية راحة وأي عزاء وإنتعاش كنت أشعر به كلما حظيت بجو «الهري» (إسم بيت الآنسة) الدافئ، ولشد ما كان يشق علي الحرمان حين كنت أضطر في بعض الأحيان إلى التغيب عنه يومين أو ثلاثة!

ويسعدني القول أن الآنسة «لويز» تشرف على شؤون «جرترود» والفتيات الثلاث دون أن تضيق بهن أو تتأفف، يساعدها في العمل ثلاث خادمات مخلصات يجنبنها التعب. وهل في وسع إنسان أن يسفه الثروة والفراغ في محاباتهما لهذه الآنسة، وهي أجدر الناس بهما؟ إنها تحبس كل وقتها وعنايتها على الفقراء والمساكين، ولها نفس عامرة بأعمق الورع والإيمان، وكأني بها لم تخلق إلا لأعمال البر في الأرض والعيش فيها خالصة للعطف والمحبة. وعلى الرغم من شعرها الذي خالطه البياض والمغطى دائمًا بطاقية من المخرم الأبيض، فإن إبتسامتها وديعة بريئة كالطفل بل هي أكثر، وحركتها متزنة منسجمة فوق ما يطمح إليه البصر، وصوتها شجي رخيم كأعذب ما تتوق إليه الأذن من الإيقاع والألحان. وقد أخذت عنها «جرترود» أنماطها وأسلوبها في الحديث وقلدتها بعض التقليد في صوتها وطريقة تفكيرها، بل في كل شيء عامة –وإني أبتهج

بهذه المشابهة بينهما التي لم تلق كلتاهما بالهما إليها. وأي إنشراح يملأ نفسي حين كنت أجد فسحة من الوقت أطول من المعتاد لأقضيها معهما وأمتع النظر بمرآهما جالستين جنباً إلى جنب و«جرترود» متكئة بجبينها على كتف صديقتها أو ممسكة بيدها في رضا وإطمئنان، وهما تصغيان إلى ما أقرأ من شعر «هوجو» أو «لامارتين»! ما كان أعذب عندي أن أتأمل في نفسيهما الصافيتين إنعكاس هذا الشعر! حتى الفتيات الصغيرات كن يتأثرن به إلى حد كبير!

كان نمو هؤلاء الفتيات وتقدمهن أخاذًا في هذا الجو الذي يشع الدعة والمحبة. ولقد إنفرجت شفتاي عن بسمة حين أخبرتني الآنسة «لويز» أنها تنتوي تعليمهن الرقص حرصًا على صحتهن من ناحية، ولتدخل على نفوسهن الغضة مفاتن المسرة من ناحية أخرى ولكني اليوم أعجب أشد الإعجاب بلطف حركاتهن الموزونة التي استطعن أن يجدنها وعجزن وا حسرتاه عن أن يقدرن قيمتها! ومع هذا أقنعتني الآنسة «لويز» بأن هذه الحركات التي لا يستطعن رؤيتها، يدركن انسجامها من الوجهة العضلية.

كانت «جرترود» تشاركهن هذا الرقص مغتبطة مولعة في خفة وظرف. وكانت «لويز» تجامل الفتيات في لهوهن هذا وتنزل عن العزف «لجرترود» في بعض الأحيان، وقد خطت في فن الموسيقى خطوات تبعث على الدهش الشديد. وهي الآن توقع على أرغن الكنيسة أيام الآحاد وتمهد للأناشيد الدينية بنغمات قصيرة مبتكرة.

وفي يوم الأحد من كل أسبوع كانت تأتي لتناول طعام الغداء عندنا، فيستقبلها أبنائي بالفرح والابتهاج برغم إختلاف ذوقهم عنها وازدياد هذا الخلاف شيئًا بعد شيء. ومن حسن الطالع أن «أميلي» كانت تملك نفسها وأعصابها ولا تبدي كثيراً من الضيق والهياج فتنتهي الوجبة في خير وسلام. فإذا غادرنا المائدة قصدنا جميعًا إلى «الهري» مع «جرترود». وكان أولادي يبتهجون كأنهم في عيد حين يذهبون إلى بيت «لويز» حيث تغمرهم بالعطف وتقدم إليهم ألوانًا من الفطائر والحلوى. وامرأتي نفسها كانت تتأثر بكرم الآنسة وبشاشتها فتنفرج أسارير وجهها وتبدو في نضرة من الشباب قشيب.

وفي كل مرة كنت أعتقد أنها لن تصدف عن هذا التحوير في مجرى حياتها الممل الثقيل إلا في جهد ومشقة.

١٨ مايو

ذهب القر والجليد معه، ورجع الصحو والدفء والأيام الممتعة، فاستطعت أن أعود إلى الخروج مع «جرترود» بعد العجز عنه وقتاً طويلًا (إذ كان الثلج قد تساقط مرة أخرى وبقيت الطرق إلى الأيام الأخيرة في حال سيئة) كما لم أجتمع بها على انفراد منذ زمن بعيد.

خرجنا ذات يوم، وكان الهواء يلون خديها فيكسبهما حمرة خلابة ويهب على شعرها العسجدي فيتهدل ويسبل على وجهها النضر وهي لا تفتر عن أن تنحيه عنه. وكنا نسير في محاذاة فاقتطفت بعض أزهار برية

وعقصت بسوقها شعر الفتاة من الخلف تحت قبعتها الصغيرة ليقاوم الهواء وتجنب التشعث.

وإنا لفي طريقنا والعجب يصحبنا لعودتنا إلى الاجتماع والخلوة، ولم نتبادل إلا بعض كلمات طائشة الغرض، إذا هي تدير إلي وجهها وتسألني على حين بغتة:

– أتعتقد أن جاك مقيم على حبه؟

فأجبت في الحال:

– لقد أعتزم النزول عن حبه والعدول عنك.

– ولكن أتظنه يعرف أنك تحبني؟

مضى على الحديث الذي جرى بيننا ورويته في حينه زهاء ستة أشهر لم تنطق في أثنائها (وهذا ما يدهشني) بكلمة تمس الحب من قريب أو من بعيد، لأننا لم نكن نجتمع في خلوة كما ذكرت.. ما كان أسعدنا لو سارت الحالة على هذا المنوال! باغتني سؤالها وخفق فؤادي خفقاناً شديدًا، فاضطررت إلى التمكث في المسير. ولما تمالكت روعي قليلاً، قلت في صوت مرتفع:

– الناس جميعا يا «جرترود» يعلمون أني أحبك.

لم يقنعها كلامي فقالت:

–كلا، كلا: إنك لا تجيب على سؤالي.

سكتت قليلاً ثم عادت تقول وقد نكست رأسها:

– خالتي «أميلي» تعرف هذا، ويقيني أن هذه المعرفة ترمض نفسها بالحزن وتقض مضجعها بالألم.

فاحتججت في صوت ينم عن الاضطراب وضعف الثقة:

– إنها تحزن لغير سبب. وهذا طبعها الذي فطرت عليه.

فأجابت في لهجة تدل على ضيق الصدر ونفاد الصبر:

– أوه! إنك تحاول دائمًا أن تطمئني، ولكني لا أهتم بهذه الطمأنينة. أعرف أنك تخفي عن إدراكي أشياء كثيرة خشية أن تقلق نفسي أو تؤلمها.. تدعني أجهل أشياء كثيرة حتى أني في بعض الأحيان..

وكانت وهي تتكلم ينخفض صوتها تدريجًا، ثم توقفت كأنما قد استنفدت كل قوتها. ولما كررت جملتها الأخيرة في صيغة السؤال:

– في بعض الأحيان؟

قالت في نعمة الحسرة والاكتئاب:

– أتصور أن السعادة التي أدين بها لك قائمة على الجهل ليس غير.

– ولكن يا «جرترود»..

– دعني أتكلم: إني لا أريد سعادة مثل هذه. ثق بأني.. بأنه لا

يهمني أن أكون سعيدة. أفضل عندي أن أعرف.. في الحياة أشياء كثيرة، وحزينة حقًا لا أستطيع أن أراها، ولكن لا يجوز لك أن تكتمني أمرها وتتركني أجهل حقيقتها. لقد أدمنت التفكير طوال أشهر الشتاء، وأخشى أن يكون العالم بأكمله أقل جمالًا، بل على النقيض مما ألقيت في روعي يا سيدي الراعي.

– في الحق إن الإنسان قد شوه العالم في كثير من الأوقات.

نطقت بهذه الألفاظ في خوف، لأن توثب أفكارها أفزعني ونال من جلدي، فحاولت أن أصرف ذهنها عما يعكر صفاءه وأنا يائس من النجاح فيما أقصد إليه. وخيل إلي أنها كانت تنتظر هذه الكلمات القلائل، لأنها تلقفتها على الفور كأنها حلقة أتصال بين طرفي سلسلة، وصاحت قائلة:

– هذا هو عين ما أرومه: أود لو أتأكد أنني لا أضيف شرًا إلى ما هو كائن.

واصلنا المسير في خطى سريعة وقتًا طويلًا من غير أن ننبس ببنت شفة. وكل ما كان في مقدوري أن أقوله، كان يصطدم مقدماً بما كنت أحس أنه يجول بخاطرها. وخفت أن يصدر عني جملة قد يتوقف عليها مصيرنا، فآثرت السكوت. وفي هذه الحالة تذكرت «مارتان» وقوله إن من الجائز المؤمل أن تبصر «جرترود»، فأمتلأ صدري بانقباض أليم.

وبينما أنا مستغرق في صمتي مشترك الخاطر مأخوذ اللب، إذا بها تقول:

– أريد أن أسألك – ولكني لا أدري كيف أصيغ السؤال..

كانت تستصرخ من غير شك كل شجاعتها، كما كنت أفعل لأقوى على الإصغاء إليها. ولكن كيف كنت أستطيع إدراك السؤال الذي يمضها ويعذب نفسها قبل أن تنطق به؟

عادت إلى تكملة حديثها:

– هل أولاد الضريرة لا بد أن يولدوا عمياً؟

لست أدري أينا كان أشد ألماً من هذا الحديث، ولكننا وقد بلغنا هذه المرحلة، كنا مضطرين إلى الاستمرار فيه فقلت:

– كلا يا «جرترود»، إلا في حالات خاصة نادرة، وفضلاً عن ذلك، فليس من سبب ألبته لأن يولدوا كما ذكرت.

بدت على وجهها أمارات الاطمئنان، وكنت أرجو بدوري أن أسألها لماذا تطلب هذا الإيضاح، ولكني لم أجد من نفسي الشجاعة، فتابعت قولي في نزق:

– تعلمين يا «جرترود»، أن الإنسان لكي يعقب، ينبغي أن يكون متزوجاً.

– لا تقل هذا يا سيدي الراعي. أعلم أنه غير صحيح.

فاحتججت قائلًا:

– قلت لك ما يأمر به التوقر والاحتشام، أما في الواقع فإن قوانين الطبيعة تبيح ما تحرمه قوانين البشر وأحكام الله.

– قلت لي مراراً أن شرائع الله هي شرائع الحب نفسها.

– إن الحب الذي يتكلم هنا لم بعد ما يعبر عنه بقوله: الإحسان أو البر أو محبة الله.

– وهل تحبني بدافع الإحسان؟

– كلا يا «جرترود» كما تعلمين جيدًا..

– إذن تعترف بأن حبنا يخالف أحكام الله؟

– ما الغرض الذي ترمين إليه؟

– أوه! تعرفه جد المعرفة، وليس من شأني أن أفصح عنه.

عبثاً حاولت المراوغة والهرب من هذا الموضوع الشائك، وسمعت إلى قلبي يدق معلنًا تراجع حججي في هزيمة منكرة، فصحت في حيرة الوله:

– جرترود،.. أترين أن «حبك» خاطئ؟

فقومت قولي وعدلته:

– إن «حبنا».. أقول لنفسي: كان علي أن أراه كذلك حين بزغ فجره.

- وإذن؟..

فاجأت في صوتي وأنا أنطق بهذه الكلمة، ما يشبه التوسل والضراعة، بينما أكملت هي قولها بلا توقف.

- ولكني لا أستطيع الكف عن أن أحبك.

كل هذا وقع بالأمس، وقد ترددت في تدوينه بعض التردد.. لم أعد أدري كيف انتهت إستراضتنا.. سرنا في خطوات سريعة كأننا كنا نروم الفرار، وذراعها تحت إبطي أضغط عليه ضغطًا شديدًا. وخيل إلى أننا، وقد فارقت نفسي الجسم الذي يحتويها، سنسقط على الأرض إذا عثرت أقدامنا بحجر مهما يكن صغيرًا لا يكاد ينال بلحظ البصر.

١٩ مايو

عاد إلي «مارتان» يبشرني بأن «جرترود» ستبصر دون ريب، وأخبرني أن الطبيب «رو» يؤكد نجاح العملية ويطلب إستبقاء الفتاة عنده بعض الوقت.

لم يكن لي أن أعترض، ومع هذا ملكني الجبن فسألته أن يستمهلني زمنًا قصيرًا للتفكير والتروي، وأن يدعني أعد نفس الفتاة في أناقة وهدوء..

كان من المفروض أن يصفق قلبي إبتهاجًا، ولكني شعرت به يثقل في دخيلتي ويرزح تحت عبء مستبهم من الغم يستعصي على البيان..

وكان علي أن أعلن إلى «جرترود» الأمل في رد البصر إليها، وفكرة هذا الواجب وحدها أنشأت في صدري التخاذل والخور.

١٩ مايو ليلًا

رأيت «جرترود» ولم أتحدث إليها في شيء. وفي هذا المساء ذهبت إلى «الهري» ولما لم أجد أحدًا في الثوى، صعدت إلى غرفة الفتاة فجلسنا على انفراد.

جلست حذوتها وضممتها إلي طويلًا فلم تبد منها أقل حركة تدل على التنتع والرغبة في الابتعاد عني، ثم رفعت وجهها إلي، فتقابلت الشفاه..

٢١ مايو

أمن أجلنا يا رب جعلت الليل شديد العمق رائع الجمال؟ أمن أجلي يا فاطر السموات والأرض؟.. الهواء دافئ ونور القمر يتهادى إلي من النافذة ويغمرني بفيض من السحر، وأذني تنصت إلى سكون الماء الهائل وصمتها الرهيب. لشد ما تذيب قلبي نشوة روحية صامتة في عبادة مضطربة مختلطة للكائنات جميعًا! لم أعد أستطيع الصلاة إلا في كلف وتوجد.. رب إن كان للحب حد، فهو ليس من وضعك، وإنما هو من وضع أبناء آدم. ومهما يظهر حبي آثمًا في أعين الناس، فألهمني الإيمان بأنه عندك طاهر نقي!

إني أحاول أن أسمو بنفسي على فكرة الخطيئة.. إنها تبدو لي بشعة غير محتملة، ولا أريد على أية حال أن أنحرف عن المسيح. كلا، إني لا أقبل أن أرتكب الخطيئة بحبي «لجرترود»، وليس في مقدوري أن أقتلع هذا الحب من قلبي إلا بإقتلاع القلب نفسه، ولماذا؟ لو لم أكن أحبها، لوجب علي ذلك رحمة بها وشفقة. والعدول عن حبها الآن يكون خيانة لها: إنها في حاجة شديدة إلى حبي.

رب، إني لم أعد أعرف.. لم أعد أعرف غير ذاتك العلية. أنر طريقي يا أرحم الراحمين وأهدني سواء السبيل! في بعض الأحيان يخيل إلي أن أغوص في الظلمات وأتعمق في طبقات منها بعضها فوق بعض.. إن البصر الذي سيرد إلى الفتاة، قد زال عن عيني وأنطفأ نوره!

دخلت «جرترود» بالأمس مصحة الطبيب «رو» بـ «لوزان» وستبقى فيها عشرين يوماً. وإني أنتظر أوبتها في قلق وجزع بالغين.

سيصحبها «مارتان» في عودتها كما اتفقنا، وقد أخذت مني وعدًا قبل سفرها ألا أحاول رؤيتها في أثناء علاجها.

٢٢ مايو

جاءني خطاب من «مارتان» يبشرني فيه بنجاح العملية، فلك أجزل الحمد يا رب!

٢٤ مايو

تبلبل بالي وتسلط علي ضيقًا لا يحتمل، فكرة واحدة: إنه لا مفر من وقوع نظرها علي، وهي التي أحبتني إلى ذلك الحين دون أن تراني!

هل ستعرفني يا ترى ولا تنكر مني شيئاً؟ للمرة الأولى في حياتي سالت المرايا في لهفة وهلع وألحفت في استنطاقها! ماذا عسى أن يكون مصيري إذا شعرت بأن نظرها أقل تسامحًا مما كان قلبها وأضعف حبًا لي وحدبًا علي؟ رحمتك اللهم! يتمثل لنفسي أحيانًا أني في حاجة إلى حبها لكي أحبك!

٢٧ مايو

خفف من غلواء جزعي في هذه الأيام الأخيرة عمل كثير مرهق. وإني أعد كل مشغلة تستطيع انتشالي من نفسي مقدسة مباركة، ولكن صورة «جرترود» تتبعني خلال كل شيء في كل حين.

غدا هو اليوم المحدد لعودتها إلينا. ولم تظهر لي «أميلي» أثناء هذا الأسبوع إلا خير النواحي من مزاجها وكأني بها قد عاهدت نفسها على أن تنسيني الفتاة الغائبة، وأن تستعد وأولادها للاحتفال بقدومها.

٢٨ مايو

جمع «جاسبار» و«شارلوت» ما وجدا من الأزهار في الغابات والمروج والمراعي، وافتتنت «روزالي» العجوز في صنع فطيرة مثالية هائلة

جملتها «سارة» بالورق الذهبي وأنواع أخرى من الزينة مختلفة الألوان والصور.

ننتظر وصولها ظهر اليوم. وإني أكتب لأقطع الوقت وأعمى على نفسي ألم الانتظار. الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً. وفي كل لحظة أرفع رأسي وأطلق بصري إلى الطريق المعين الذي ستسلكه مركبة «مارتان». وقد كبت في صدري الرغبة الملحة في الخروج لمقابلتهما، لأني رأيت خيرًا لي وحرصاً على شعور «أميلي» ألا أسبقها إلى هذا الاستقبال وأنفرد به قبلها.

قلبي يقفز في صدري ويكاد ينطلق.. آه! لقد حضرا!

٢٨ مايو مساء

في أية ظلمة بشعة أسبح وأنغمس الرحمة يا رب! الرحمة! إني أعدل عن حبها، ولكن أنت يا خالق الكون.. أضرع إليك أن تحفظها من الموت!

لشد ما كنت على حق فيما إنتابني من الخوف! ماذا فعلت؟ ماذا كان في نيتها أن تفعل؟ أخبرتني إمرأتي و«سارة» أنهما أبلغاها باب «الهري» حيث كانت صاحبته الآنسة «دي لا. م» في إنتظارها. لقد أرادت إذن أن تخرج ثانية.. ماذا جرى؟

كم أحاول أن أهدئ من روعي وأدخل بعض النظام على أفكاري،

لأن الروايات التي تصل إلى سمعي إما مستغلقه أو متناقضة، وكل شيء يختلط في رأس .. بستاني الآنسة «لويز» عاد بها إلى «الهري» منذ قليل فاقدة الحس، ويقول إنه رآها تسير على شاطئ النهر ثم اجتازت جسر الحديقة وانحنت على صفحة الماء، ثم اختفت، ولكنه لم يدرك حينئذ أنها سقطت في اليم فلم يسرع إلى إنقاذها كما كان ينبغي، ووجدها آخر الأمر على مقربة من السد الصغير حيث حملها تيار الماء.

حين رأيتها بعد ذلك بقليل، لم تكن قد استفاقت، أو على الراجح فقدت الوعي ثانية. وبعد لحظات عادت إلى نفسها بفضل ما وجه إليها من العناية السريعة. ومن حسن الحظ أن «مارتان» كان لا يزال معنا، ولكنه فسر هذا النوع من الذهول أو الخمول الذي اعتراها تفسيرًا ناقصًا غير مقنع. وعبثًا سألها وأستدرجها، وكأني بها لم تسمع شيئًا أو اعتزمت أن تلزم جانب الصمت، وظل نفسها مطرودًا مبهورًا لاهثًا حتى خاف عليها «مارتان» احتقان الرئتين، فأسعفها بالعلاج الوقتي ووضع على ظهرها المحاجم نم وعد بالعودة في اليوم التالي.

وكان الخطأ أنها تركت وقتاً طويلاً بملابسها المبللة بماء النهر الشديد البرودة، إذ كانت الغاية المرجوة أول الأمر إرجاع الرشد إليها. وقد استطاعت الآنسة «دى لا. م» أن تحصل منها على بعض كلمات يستدل منها على أنها أرادت أن تجمع شيئًا من أزهار «لا تنسني» التي تنمو بكثرة في تلك الناحية من النهر، فزلت قدمها على حين بغتة، لأنها

لم تحسن بعد تقدير المسافات واتزان الخطوات أو ربما ظنت بساط الأزهار الطافي فوق سطح الماء أرضًا صلبة تحتمل قدميها.. آه! لو تسنى لي أن أعتقد بصحة هذا التعليل! لو اقتنعت بأن ما حدث جاء عن طريق القدر لا عن عمد، لألقيت عن نفسي عبئاً ما أثقله وأبشعه!

جلسنا إلى المائدة، وكانت الوجبة فرحة على الرغم مما وقع، ولكن «جرترود» لم تفارقها بسمة غريبة بعثت في طويتي أفظع ألوان القلق طول الوقت الذي قضيناه في تناول الطعام. كانت بسمة مغتصبة لم أعهدها فيها من قبل، فحاولت أن أنسبها إلى حالة الإبصار الجديدة التي طرأت عليها لأجنب نفسي مرارة الحقيقة..كأني بهذه البسمة قد جرت من عينيها عبرات على خديها، فتضاءل أمامها إبتهاج الآخرين المبتذل وآلم نفسي جد الألم.

لم تشترك «جرترود» في الفرح، وكأنما هي قد استكشفت سرا تود من غير شك لو تكون في خلوة فتسره إلي، وبقيت صامتة لا تنطق إلا بكلمات قليلة في فترات متباعدة، وليس هذا بمستغرب منها لأنها في غالب الأحيان تفزع إلى السكوت كلما أزداد من في مجلسها صخبًا وثرثرة.

رب، إني أضرع إليك أن تجيب سؤلي هذا: أوزعها أن تفضي إلي بذات نفسها. إني مضطر إلى المعرفة لأستطيع الاستمرار في الحياة.. ومع ذلك هل الرغبة الشديدة التي دفعتها إلى الخلاص من العاجلة،

مأتاها على وجه الدقة أنها «عرفت» وحسر عن عينها حجاب الجهل؟ وماذا عرفت؟ أي شيء بشع يا صديقتي وقع في ذهنك؟ وأي شيء قاتل أخفيته عنك، وتسني لك أن تبصريه فجأة؟

قضيت إلى جانب فراشها زهاء ساعتين، أرهف السمع لتنفسها المتقطع المضطرب، وأتفرس في جبينها ووجنتيها الممتقعتين وأجفانها الرقيقة المطبقة على حزن غامض، وشعرها المبلل المنشور من حول رأسها على الوسادة كحزم صغيرة من الأعشاب البحرية..

٢٩ مايو

استدعتني الآنسة «لويز» هذا الصباح حين كنت على وشك الذهاب إليها من تلقاء نفسي. وقد عاد الوعي إلى «جرترود» بعد أن قضت الليل في هدوء يشوبه بعض القلق. ولما دخلت غرفتها قابلتني بإبتسامة، وأشارت إلي بالدنو منها والجلوس على حافة فراشها.

لم أجرؤ على الاستفسار منها عما يجيش في صدري، وكانت دون ريب تخشى أسئلتي، لأنها قالت على الفوز كأنما أرادت أن تتلافى أي تفتح للنفس فتلفظ دفعة واحدة ما يفدحها من الخوالج:

– كيف تسمى هذه الأزهار الزرقاء التي أردت أن أجمعها من شاطئ النهر؟ أتتكرم بعمل طاقة منها، وأنت أكثر مني مهارة ودربة؟ لو جئتني بها لوضعتها هنا على مقربة من سريري..

آلمني ابتهاج صوتها المتكلف، وأدركت هي ذلك دون شك إذ قالت في لهجة جدية:

– لا أستطيع أن أتحدث إليك هذا الصباح لفرط التعب الذي يستولي علي. اذهب وأجمع الأزهار إذا سمحت، وأرجو أن تعود إلى سريعًا.

رجعت بعد ساعة ومعي طاقة الأزهار المشتهاة، فقابلتني الآنسة «لويز» وأخبرتني أن «جرترود» نائمة ولا يمكن أن تستقبلني قبل المساء، فتركت الأزهار وانصرفت.

رأيتها ثانية هذا المساء، وكانت شبه الجالسة على الفراش، وظهرها يستند إلى وسائد بعضها فوق بعض، وشعرها مرتب حول جبينها، تتخلله زهرات من التي جمعتها.

وكانت الحمى تبدو عليها وتستبد بها، فلما وقفت أمامها ومددت إليها يدي، استبقتها في يدها الملتهبة، وقالت:

– ينبغي أن أسر إليك اعترافا، لأني أخشى أن أموت الليلة. لقد كذبتك في هذا الصباح.. لم أكن أحاول اقتطاف أزهار.. أتصفح عني إذا قلت إني أردت إزهاق روحي؟

خررت جاثياً على ركبتي عند حافة السرير، ويدي ممسكة بيدها الضعيفة المعروفة، ولكنها جذبتها في رفق وشرعت تمسح بها على

جبيني، على حين كنت أدفع وجهي في طيات غطائها لأخفي عنها دموعي وأكبت تنهداتي.

عادت تقول في رقة نامية.

– أتجد أن هذا شر عظيم؟

عينت عن الجواب، فقالت:

– ترى جيدًا يا صديقي أني أشغل من قلبك وفي حياتك مكانًا فوق ما ينبغي. أدركت هذه الحقيقة عقب رجوعي إليكم، أو فهمت على الأقل أن المكان الذي أشغله ملك لامرأة أخرى يحزنها ويدمي قلبها اعتدائي عليه واغتصابي إياه. وجريمتي أني لم أشعر بهذا مبكراً وفي الوقت الملائم، أو على الأقل – وقد عرفت ذلك الآن – أني تركتك تحبني على الرغم من كل الظروف. ولكن لما تجلى لي وجهها بغتة ورأيت سحابة الحزن العميق تتدجي فيه، أرمضتني بالألم هذه الفكرة: أن حزنها من صنعي ونسج يدي، فلم أعد أحتمل عبئها القاتل.. لست مخطئًا ولا ملومًا، ولكن دعني أفسح لها المكان ورد عليها الطمأنينة والفرح.

توقفت يدها عن ملاطفة جبيني، فأمسكت بها وغمرتها باللثمات والعبرات، ولكنها جذبتها في حركة تدل على ضيق الصدر وطفق يهمي على قلبها سيل حزن جديد، فقالت:

– ليس هذا ما أردت أن أقوله، وليس هذا ما أريد أن أقول.

كررت الجملة الأولى ثم سكتت، ورأيت العرق يتصبب من جبينها. وبعد لحظات أغمضت عينيها وبقيت على هذه الحال بعض الوقت كأنما اعتزمت أن تستجمع فكرها أو توهم نفسها بأنها عادت سيرتها الأولى من ظلمة العين. فلما تم لها ما أرادت، قالت بصوت كسير حزين وهي تفتح عينيها، ولم يلبث أن قوى وأرتفع حتى صار حادًا شديدًا:

– لما رددت علي البصر، فتحت عيني على عالم أجمل مما أستطعت أن أتوهمه في تأملي وخيالي. نعم في الحق لم أتصور النهار والجو والسماء في مثل هذا النور والصفاء والأتساع، وكذلك لم يدر بخلدي قط أن جبين البشر يحمل همومًا إلى مثل هذه الدرجة. وحينها أبت من سفري ودخلت عليكم، أتدري أي شيء ظهر لي لأول وهلة؟.. آه! مهما يكن من شيء، فإني مضطرة إلى الجهر لك: لم أر عند دخولي إلا خطأنا، بل خطيئتنا.. لا تحتج.. تذكر قول المسيح «لو كنتم عميا، لما كان لك خطايا مطلقا».. الآن أرى حكمة هذه الآية وأدرك مغزاها.. إنهض أيها الراعي وأجلس هنا على مقربة مني، ثم أصغ إلي ولا تقاطعني. قرأت أثناء إقامتي عند الطبيب – أو قرئ لي على الراجح – قطعًا من التوراة كنت أجهلها ولم تقرأها أنت لي قط. وإني لأذكر آية لبولص الرسول كررتها لنفسي يومًا كاملًا، وهي «أما أنا، وكنت في الزمن السالف بلا قانون، فقد عشت. ولكن لما جاءت الوصية، انتعشت الخطيئة وزارتني المنية».

كانت تتكلم في تمجيد بالغ وبصوت مرتفع يكاد يبلغ حد الصراخ حين نطقت بالكلمات الأخيرة، حتى خشيت أن يصل إلى سمع الجالسين خارج الغرفة.

ثم عادت فأغمضت عينيها وكررت هذه الجملة في صوت خافت كأنما تحدث نفسها: «انتعشت الخطيئة –وزارتني المنية».

أستقلتني رجفة، وأنقض على قلبي نوع من الرعب كاد يوقف دقاته. ومع هذا أردت أن أصرف ذهنها عن فكرة الموت، فقلت:

– من ذا الذي قرأ لك هذه الآيات؟

فأجابت وهي تفتح عينيها وتحدق في وجهي:

– تلاها على «جاك».. ألا تعرف أنه صدف عن المذهب البروتستانتي وأعتنق المذهب الكاثوليكي؟

شق على هذا الخبر، وكنت على وشك أن أسألها الصمت في رجاء وضراعة، ولكنها استمرت في قولها:

– إني أسبب لك ألمًا كثيرًا يا صديقي، ولكن ينبغي ألا يقوم بيني وبينك ظل من الكذب. لما رأيت «جاك»، أدركت فجأة أنه لم يكن أنت الشخص الذي أحبه، بل كان إياه. له وجه كوجهك تماماً، أريد أن أقول إن له وجهًا يماثل وجهك الذي تصورته.. آه! لماذا أوعزت إلى أن أرفض عواطفه وأرد حبه؟ كان في وسعي أن أتخذه حليلًا..

فصحت قائلاً في يأس:

– لا يزال في وسعك إتمام هذا الزواج.

فأجابت في حدة:

– لقد ترهب.

ثم صعدت أعمق التنهدات. ولما هدأ بعض ما بها، غمغمت قائلة في ذهول روحي:

– آه! أود لو أعترف له. ترى جيدًا يا سيدي الراعي أني على قاب خطوات من الموت. أشعر بظمأ شديد، فتفضل وأستدع أي إنسان. إني أختنق.. دعني وحدي... آه! كنت أرجو أن أجد متلمسًا من العزاء في التحدث إليك على هذه الصورة. أتركني، أتركني. لم أعد أحتمل رؤيتك.

غادرت الغرفة وناديت الآنسة «دى لا. م» لتحل محلي. وكان إنفعالها الشديد يخيفني وينذرني بأسوأ العواقب، ولكني أذعنت لأمرها بعد إقناع نفسي خشية أن يزدها بقائي سوءًا، ورجوت من ربة الدار أن تخطرني إذا تفاقمت حالتها.

٣٠ مايو

وا أسفاه! كتب علي أن لا أراها بعد ذلك إلا مسجاة في الفراش. إنها أستوفت أنفاسها عند طلوع النهار هذا الصباح بعد أن قضت ليلة في الهذيان والآلام المبرحة. وقد أرسلت الآنسة «لويز» برقية إلى جاك»

إنفاذًا لرغبة «جرترود» الأخيرة، تدله على رداءة الحالة، فلم يستطع أن يصل إلا بعد موتها ببضع ساعات. ولما تقابلنا وجه إلى أعنف اللوم لأني لم أستدع للفتاة قسيسًا قبل فوات الوقت. ولكن كيف كنت أفعل ذلك، ولا أزال أجهل أنها اعتنقت المذهب الكاثوليكي أثناء إقامتها «بلوزان» سيراً على حكمه دون ريب؟! ثم أعلن إلي في وقت واحد وضربة واحدة اعتناقه وإياها هذا المذهب الديني... وكذلك فارقني هذان المخلوقان، وكأني بهما وقد كنت سبب التفرقة بينهما في الحياة، قد دبرا خطة الهرب مني ليتحدا في الله على استواء. ولكني فهمت واقتنعت بأن انقلاب «جاك» الديني يرجع إلى التعقل والروية أكثر مما يرجع إلى الحب، لأنه قال لي:

– أبي، ليس من الملائم أن أتهمك، ولكن مثل خطئك هو الذي أرشدني وهداني.

لما سافر «جاك» ركعت على مقربة من «أميلي» وسألها أن تصلي من أجلي؛ لأني كنت في حاجة إلى العزاء والمعونة، فقالت فقط هذه الصلاة «يا أبانا الذي في السماء....» وهي تفصل بين كل آية وأخرى بصمت طويل يشغله ابتهالنا وضراعتنا.

لشد ما كنت أود لو تسح جفوني، ولكني شعرت بقلبي أكثر جدباً من الصحراء..

الفهرس